المسرح الدينى في العصور الوسطى

تأليف

جان فرابييه — ا. م. جوسار

ترجمة : الدكتور محمد القصاص

مراجعة : الدكتور محمد مندور

ارشاد القومى
المؤ... رية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina
01932246

هذه ترجمة كتاب :

LE THÊATRE RELIGIEUX AU MOYENAGE

Par

Jean Frappier & A. M. Grossart

المسرح الديني

في العصور الوسطى

نصوص مختارة، تحليل، تعليقات
هوامش تفسيرية

تأليف

چان فرابييه
ا. م. جوسار

ترجمة
الدكتور محمد القصاص

مراجعة
الدكتور محمد مندور

جـــــدول زمني

للمسرح الديني في العصور الوسطى

القرن التاسع : المجاز الحوارى Quem Quaeritis (قداس لعيد الفصح) لتوتليون Tutilion راهب سان جال .

القرن العاشر : مجاز حوارى لقداس عيد الميلاد من أجل دير سان مارسيال بليموج .

القرن الحادى عشر :

(دراسات طقوسية باللاتينية عن القيامة) .

القرن الثانى عشر : تمثيليات مدرسية (باللاتينية واللغة العامية) دانيا (بوفيه) ،القديس نيقولا ولعزار (فلورى على شاطئ اللوار)، درامة العذراوات العاقلات والعذراوات الحمقاوات (دير سان مارسيال فى ليموج) ، إهتداء القديس بولس ، دانيال، تمثيلية القديس نيقولا .

النصف الثانى من القرن الثانى عشر : قطعة من تمثيلية البعث (باللهجة الإنجليزية النورمندية) .

نهاية القرن الثانى عشر :

تمثيلية آدم . لجان بودل (المتوفى ١٢١٠) :
تمثيلية القديس نيقولا .

القرن الثالث عشر :

البداية : قصة آلام منسوبة للشعراء المتجولين .

الوسط ، روتبيف : معجزة تيوفيلوس .

القرن الرابع عشر :

البداية : آلام [مدينة] أوتان . آلام بالاتينوس .

الوسط : الآلام البروفنسية .

١٣٧١ : جمعية الآلام بنانت .

١٣٨٠ : جمعية الآلام بباريس .

النصف الثانى : معجزات السيدة العذراء بالشخصيات . تمثيليات مخطوطة بمكتبة سانت جنفييف (لعلها تكون رصيد جمعية إخوان الآلام الباريسية) .

القرن الخامس عشر:

١٤٠٢ : خطابات الإجازة الممنوحة من شارل السادس للجمعية الباريسية للآلام (أول مسرح دائم يتقاضى أجرا) .

الثلث الأول : آلام [مدينة] سيمور . أوستاش ماركاد Eustache Marcade : آلام [مدينة] آراس .

حوالى ١٤٥٠ : آرنوجريبان Arnoul Greban :
سر الآلام ، فى حوالى أربعة أيام .

١٤٨٦ : جان ميشيل Jean Michel :
سر الآلام ، فى عشرة أيام .

القرن السادس عشر:

١٥٠١ : كتاب خطة السير لمدير تمثيل سر الآلام فى مونسى .

١٥٤١ : تمثيل «أعمال الرسل ، فى أربعين يوما» ، فى باريس.

١٥٤٧ : تمثيل سر الآلام فى فالنسين .

١٥٤٨ : قرار برلمان باريس بمنع تمثيليات الآلام .

القرن السابع عشر :

١٦٧٦ : إلغاء جمعية الآلام .

ملاحظة : نسير فى هذا الكتاب على النمط الذى سار عليه العمل فى كتب العصور الوسطى من هذه المجموعة ، فنقدم من كل مؤلف ترجمة بعض أجزائه بالفرنسية مصحوبة ببعض التحليلات ، مع فقرات من النص بلغته الأصلية .

المسرح الديني في العصور الوسطى

مذكرة

الأصول الطقوسية :

هل قامت العصور الوسطى باختراع الفن المسرحى بكل مقوماته من جديد ؟ إننا إذا طرحنا السؤال على هذا النحو من الإطلاق ، لم يكن فى وسعنا إلا أن نجيب عليه بالنفى . فقد كان رجال الدين يعرفون المسرح اللاتينى تمام المعرفة ، ولكن تأثير هذا الأدب كان تأثيرا نظريا أكثر منه فعليا ، كما كان ينحصر فى المسرح الهزلى . والحقيقة أن سلسلة التقاليد المسرحية كانت قد انقطعت خلال عدة قرون ، ولكن كان لا بد للغريزة الدرامية ـ التى هى سمة دائمة للطبيعة البشرية ـ من أن تجد وسيلة لإشباع غلتها ، وكانت الحياة الدينية أول ما قدم لها هذا الغذاء . وفى هذه النقطة يلتقى المسرح الإغريقى ومسرح العصور الوسطى من حيث نشأتهما .

كل الأديان دارمية الروح مادام الإنسان فيها يواجه مقدوره . ولعل

المسيحية تفوق غيرها من الديانات فى أنها تعنى أكثر منها بإبراز دراما العالم والضمير البشرى هذه ؛ وذلك أن تاريخ البشرية ليس فى نظرها إلا مأساة ينتهى بالصليب وآلامه ، والعالم عبارة عن مسرح ذى ثلاثة مناظر هى : السماء (الفردوس) والأرض ، والجحيم ؛ أما الضمير البشرى فموطن لنزاع لا يفتأ يتجدد بين الإنسان القديم الذى يرزح تحت نير الخطيئة الأولى ، والإنسان الجديد الذى خلقه التعميد خلقا آخر . وقد استولت الطقوس الدينية على هذه المادة الدرامية، واستخدمتها وأحاطتها بحشود من الأناشيد والملابس والإشارات الكنسية التى جعلت من هذه الحفلات الدينية مشاهد من شأنها أن تعلم الشعب المؤمن ، وأن تثير مشاعره أيضا . فالكنيسة هى التى « وجدت فيها البشرية هذا النوع من القلق الذى تبحث عنه فى المسرح » وذلك على حد تعبير الأستاذ « جوليان بندا Julien Benda »[1] .

واللباس الدينى وحركات القسس ـ التى تسير على نظام فى غاية الدقة ـ هى الجزء التمثيلى فى إقامة الصلوات ، وكانت أهميتها فى جذب انتباه المؤمنين تزداد كلما قلت قدرة الشعب فى فهم اللغة اللاتينية ، وتشهد كتب الطقوس

---

(١) فى مقال له نشر فى المجلة الفرنسية الجديدة بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ ـ (ص ٨٢٥) بعنوان « نعيم إيلوتير Delice d'Elauthére » .

بأقلميتها . يقول المنسنيور دوشين Du Chêne فى كتابه (أصول الطقوس المسيحية ص ٢٠٢ - Origines du Culte Chrètien): « أصبحت العباءة الدلماسية[1] — شعارا خاصا بالبابا ورجاله ، وذلك - على مايبدو — بعد أن أخذت عامة الناس تنظر إليها على أنها لباس عتيق » . وقد ظهرت الشعارات الرمزية التي من قبيل الطيلسانة والحريم[2] منذ زمن مبكر، وكان الممثل الذي يلعب دور الفادى (الرمز) يلبس العباءة الدلماسية . فى تمثيلية آدم.

ولا نزال نرى العناوين التي كانت تنظم حركات الممثلين فى الدرامات الدينية الأولى مكتوبة بصورة واضحة فى أنموذج الكتب التي خصصت لتنظيم القداسات .

وفى بعض الأعياد كانت الإحتفالات الدينية تتخذ لها طابعا دراميا أكثر بروزا من المعتاد ،وقد احتفظت به حتى يومنا هذا ، وفيها كان المصلون يقومون أحيانا ببعض الأدوار ، ومن أمثلة ذلك : احتفالات عيد السعف التي تصحب بحوار يتلى على باب الكنيسة ، وصلاة الصليب التي تقام يوم الجمعة الكبيرة، ومباركة شمعة الفصح فى يوم السبت المقدس (سبت النور)

---

(١) نسبة إلى دالماسيا ، وهى عباءة بيضاء مطرزة باللون الأرجوانى يلبسها رجال الدين أثناء القداس.

(٢) نوع من اللباس يشبه لباس الإحرام .

وكانت رموز هذا الاحتفال الأخير تشرح فى بعض الكنائس الإيطالية بواسطة منمنمات مرسومة على الأسطوانة الورقية التى يقرؤها الشماس ، تلك المنمنمات التى كانت ترتب على ظهر القرطاس بطريقة تجعل المصلين يرونها بالتدريج كلما بسط الشماس مخطوطته .

استطاع العنصر الغنائى أن يحتل مكانا هاما فى الطقوس منذ عصر قديم جداً ، فكان إنشاد المزامير يتناوب الدور مع تلاوة النصوص فى الجزء الأول من القداس ، وكان المصلون يرددون الأجزاء الختامية فى صورة جوقة .

ويرجع الفضل فى إدخال غناء المزامير ، وإنشاد الآيات التمهيدية التى تسبقها فى أوربا إلى القديس أمبرواز Saint Ampraise فى القرن الرابع الميلادى ، كما أنه هو أيضا الذى أدخل فى الطقوس عادة إنشاد الشعر الفردى بأناشيده اللاتينية المنظومة التى اتخذها الشعر المسيحى أنموذجا له طوال قرون عديدة . ولا شك أن ظهور هذين العنصرين : ـ الإبتداع الفردى ، ونظام الجوقتين المتناوبتين ـ يسمح لنا جيدا بأن نفهم كيف أمكن للفن المسرحى أن يصدر عن الطقوس الدينية ، فهنا نجـــد الفن يحتل مكانه فيها .

ولكن هذه البراعم الأولى لم تتفتح إلا بعد قيام النهضة الكارولنجية .

فقد عمل أحد الأديرة العظيمة ذات الثقافة ، وهو ديرسان جال Saint Gall في سويسرا على أن يصبح مركزا للخلق الشعرى الحقيق . ففي هذا الدير اخترع الراهب توتيلون Tutilon الفقرات المجازية Trores ، وهي شروح غنائية منظومة يقصد بها زخرفة النص وتوسيعه ، وقد وضعت بعض هذه الفقرات في صورة حوار ، ومن أمثلتها تلك التي تقال في افتتاح صلوات عيد الفصح ، ومنها :

— « عمن تبحثن في القبر المقدس ، ياخادمات المسيح ؟

— عن عيسى النصرانى ، يا سكان السماء .

— إنه ليس هنا ، لقد بعث ، كما سبق له أن قال : فهيا ، وأعلن أنه قد خرج حيا من القبر المقدس» .

وكانت هذه هي نقطة الانطلاق ، وقد أخذ الابتكار الذى يصح لنا أن نطلق عليه الأبتكار الدرامى يتبلور حول موسمين من مواسم السنة ، وهما عيد الفصح الأول ثم عيد الميلاد ، اللذان يعتبران بمثابة البؤرتين للطقوس الدينية .

وفى القرن العاشر نرى سان مارسيال الليموجى Siant Martial de Limages يقدم لنا مثالا من هذا النوع من الفقرات الحوارية الخاصة بالصلوات الافتتاحية لعيد الميلاد.

وإذا أردنا أن نحيط بجميع العناصر التي ساهمت فى نشأة الأدب الدرامى الكنسى ، فإنه يجب علينا أن نضيف عنصر التلاوة إلى الغناء ، وهى اشتراك عدة أصوات فى قراءة النصوص المقدسة على نحو ما يفعل اليوم بالنسبة لقراءة الإنجيل أثناء الأسبوع المقدس ، وبهذه الصورة أيضاً كانت تشكل بالشكل الدرامى إحدى المواعظ فى قداس ليلة الميلاد ، وهى الموعظة التي تنسب خطأ إلى القديس « أوغسطين » والتي نسمع فيها الأنبياء يتداولون الكلام واحداً واحداً لكى يعلنوا قدوم المسيح .

هكذا ولدت الدرامات الطقوسية المكتوبة باللغة اللاتينية فى الأديرة ومنها انتقلت إلى الطقوس الدينية فى معظم الكنائس ، وهى قداسات درامية حقيقية ، وتكون جزءا لايتجزأ من الطقوس المقررة . والقرن الحادى عشر هو العصر الذهبى للدرامة الكنسية ، ولكنها عاشت بعده زمنا طويلا . وهذه هى الدرامات الرئيسية : قداس الرعاة ، وقداس القديسين الأبرياء ، وسجود المجوس — وهذه بالنسبة لدورة عيد الميلاد — ثم القيامة ، وحجاج عمواس ، بالنسبة لدورة عيد الفصح .

وقد أمدتنا نهاية القرن الثانى عشر بنصين عظيمى الأهمية ، وهما : قطعة من القيامة ، وتمثيلية آدم ، اللتان ترتبطان أشد ارتباط بالطقوس

الكنسية من حيث موضوعاهما، ومن حيث إدخال بعض النصوص الطقوسية فى الدرامة ، ولكنهما تتميزان عنها بميزتين جوهريتين ،وهما : أن الحوار فيهما باللغة العامية ولم يعد باللاتينية ، وأن الحدث لم يعد يجرى فى الكنيسة ، بل فى مسرح مقام فى الساحة التى أمامها ، أو ربما فى الدير . ولقد نشأ المسرح الفرنسى من هذه الأعمال التى أطلق عليها اسم الدرامات شبه الطقوسية ، والتى ستؤدى إلى ظهور الأسرار .

وقد احتفظت الدرامة الدينية فى العصور الوسطى من أصلها الطقوسى بطابع المسرح الكامل ، حيث نرى المناظر والغناء والموسيقى والحوار ـ بل والرقص ـ يتوالى كل منها بدوره للمساهمة فى إثارة المشاهد ،أو امتاعه، أو تعليمه .

البعث :

المسرح فن اجتماعى بجوهره، ولذلك لا يمكن لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، مهما أسهبنا فى دراسة ما للجمهور من أهمية فى تاريخ المسرح . فلو كان لدينا معلومات أوسع مما لدينا الآن عن البيئة التى شاهدت ميلاد كل مسرحية من المسرحيات التى بقيت لنا ، لكان فى وسعنا أن نفهم المسرح الدينى بصورة أجدى وأخصب .

ولـكن من سوء الحظ أن معلوماتنا عن هذه البيئة حتى القرن الخامس عشر ضئيلة القدر وغير مؤكدة ، ولذلك نرانا مضطرين إلى الاعتماد على الفروض وضروب التعميم .

وهذه هي الظروف التي تحيط بنا حينما نحاول الإجابة عن هذا السؤال وهو : متى وكيف خرجت الدرامة الدينية من الـكنيسة ؟ ولعله يجدر بنا هنا أن نتبع رأي الأستاذ « سيبيه Sebet الذي يعزو المبادرة في هذا الصدد إلى المدارس التابعة للأديرة ، وينسب نصيباً من الأهمية يفوق ماتنسبه الـكتب المدرسية عادة إلى ذلك النوع من الدرامة الذي يبدو أنه قد نشأ حقيقة عن الدرامة الطقوسية ، وإن كانت له مميزاته الخاصة وتطوره المختلف ، ونعني به الدرامة المدرسية . وإذا أردنا أن نلجأ إلى بعض المقارنة لـكي نزيد هذه المسائل المتعلقة بالأصول إيضاحاً ، كما هو الحال حين نقارن نشأة مسرحنا في العصور الوسطى بنشأة التراجيدية الإفريقية ، أفلا يحق لنا أن نفكر في الدور الذي لعبته تراجيديه المدرسة المدنية في تكوين مسرحنا الـكلاسيكي ؟ الواقع أن « المعجزة » قد نشأت من أجل جمهور الطلبة بمناسبة أعياد القديسين .

هـــذه هي البيئة التي نشأ فيها ذلك الإبتداع الهائل ؛ أعني محاكاة الحياة اليومية محاكاة مطعمة بالمواضيع التقليدية التي تفرضها حياة التعبد .

يقول الأستاذ سيبيه فى كتابه « الأصول الـكاثوليـكية للمسرح الحديث (Origines Catholiques du théatre Moderns) ، ص ٦٣ : « كانت هذه الأديرة الـكبيرة خلال القرن الثانى عشر مراكز للعبادة والحضارة ، ومزارع نموذجية ، ومحترفات للفن والصناعـة ، ومؤسـسات للتعليم العام . كل ذلك فى آن واحد . وفيها كان عيد « القديس نيقولا » الذى يحتفل به فى السادس من ديسمبر يعتبر بداية طيبة لمتع عيد الميلاد » . فـكان من الطبيعى جدا أن يقوم الطلبة فى مثل هذه الأعياد بمسرحة أساطير القديس بصورة تذكرنا بضروب الحوار الذى أشاعته الطقوس ، ولـكن بنصيب من الحرية لم تـكن لتسمح بـه تلك الطقوس .

ويقول أيضا الأستاذ سيبيه (فى المرجع نفسه ص ٨٤) : « كان إذن ممثلو « اهتداء القديس بولس » من بين الطلبة ، وربما انضم إليهم أستاذ أو أستاذان من أساتذتهم . أما المشاهدون فـكانوا ينحصرون فى أشخاص الدير ابتداء من رئيسه حتى أقـل أخ من الإخوة الخادمين ، وأصغر تلميذ به ، وأحقر تابع من توابعه ، يزيد عليهم أقارب التلاميذ والسـكان المجاورون بوجه عام . وإذا كانت المسرحية تـكتب باللاتينية فإنها كانت لاتينية الـكنيسه ، كما كانت تدعمها بعض سطور من الغناء الدينى التقليدى ،

ومن ثم كان لها من الأثر القوى - حتى على أشد الفلاحين إيغالا فى الأمية - ما الأجل الصلوات .

هذا إلى أن التمثيل كان يفسر نفسه بنفسه بالنسبة لنفوس تعودت منذ طفولتها على المناظر العظيمة التى يتضمنها تاريخ المسيحية .

هذه إذن هى الدرامه التى انبعثت من الكنيسة منطوية على مواضيع متنوعة كل التنوع ، مألوفة كل الألفة ، ومزودة بوسائل فنية مفرطة فى الحرية . فأين وكيف أتيح لها أن تصل فى نهاية القرن الثانى عشر إلى هذا المستوى من التقدم الحاسم ، وأن ترتدى حوارها ثوب اللغة العامية ؟ أغلب الظن أن المسرح قد ساهم فى حركة الخلق الأدبى والفنى العامة التى تميز بها النصف الثانى من هذا القرن. ولكن لعله يمكننا أن نقرر - على وجه التحديد - أن التطور الجديد للآداب الدرامية إنما يرجع إلى تغلب المدارس الأسقفية على مدارس الأديرة حوالى هذه الفترة ؛ وذلك للأهمية المتزايدة لهذه المدارس التى منها بزغت الجامعات مرتبطة - كما نعلم - بنشوء تحرر المدن وانتشاره ، ذلك التحرر الذى أدى إلى انتقال مراكز الثقافة ، يقول الأساتذة « باريه . وبرونتيه وترمبليه Paré, Brunetet Tremblay فى » نهضة القرن الثانى عشر ص ٢٠ (١) La renaissance du XII Siécle » فتحت المدرسة والثقافة أبوابهما لطبقات جديدة ، فتغيرت روحهما بتغير أهليهما ...

(١) ط باريس — أوتاوة ١٩٣٣ .

وأصبح أصحاب الثقافة كلهم من قبيل الشمامسة بطبيعة الحال ، فصارت الروح الثقافية روحا دنيوية ، وإن لم تكن مدنية ، ولكنها أضحت تسمح بإشباع أذواقهم الأدبية، وإخراج بحثهم العلمى من الوصاية الدينية الخرقاء، أضحت روح تنافس وتجمع فى آن واحد ؛ لأن هؤلاء الأساتذة أصبحوا عرضة للتنافس والتحاسد، وللدخول فى مناقشات حادة على قارعة الطريق، وفى الوقت نفسه أخذوا يشعرون شيئا فشيئا بضرورة تفاهمهم فيما بينهم ، لكى يحافظوا على حقوقهم وامتيازاتهم ضد البرجوازيين الذين خرجوا من بين صفوفهم . » فالمدرسة الأسقفية أصبحت تعكس ـ بنظامها ونشاطها ـ جميع السمات التى تميزت بها المدينة .

هذه هى البيئة المنتعشة بالحياة إلى أقصى حد ، التى ينبغى لنا أن نجعلها مقراً لانتصار المسرح المكتوب باللغة العامية على الأقل ، إن لم يكن لنشأته .

وقد لاحظنا فى الاقتباس السابق ، المكانة التى تحتلها فكرة «التجمع [1]» فى هذه البيئة . وهذه أيضاً سمة جديدة لن نعتبر مبالغين

(١) وهذا أيضا هو معنى كلمة Universitas أى مجمع مهنى أو نقابة .

مهما أطنبنا فى الكلام على أهميتها فى تاريخ المسرح . وذلك أن هذه الجماعات ذات الطابع الدينى ـ سواء أكانت جمعيات مهنية أم أدبية ـ هى التى من أجلها عمد الشمامسة المتحررون من الوصاية الكنسية ـ إن قليلا وإن كثيراً ـ إلى كتابة التمثيليات والمعجزات ، وهى التى ستزود « الأسرار » بممثليها .

المؤلفات .

من شأن أمثال الجدول الزمنى للمؤلفات المسرحية فى العصور الوسطى الذى صدرنا به هذا الكتاب ، أن توحى إلينا بأن النشاط الدرامى قد منى بالفتور أو التوقف فى بعض الفترات ، وهذه فكرة يجب أن نحذر القارىء منها .

فمن المحتمل أن تكون الثغرات التى يكشف عنها جدولنا ، إنما ترجع لمجرد فقدان بعض الوثائق ، بل لعله يحق لنا أن نأمل فى أن يقل جهلنا بكثير من النقط بفضل البحوث المستقبلة .

مات جان بودل Jean Bodel سنة ١٢١٠ ، وقد كان شاعراً متجولا فى آراس Arras ، وسبق له أن كتب أغنية من أغنيات المفاخر

سماها « القديسين » : وقد قام فى زمن قريب من زمن ظهور تمثيلية « آدم » ـ على مايبدو ـ بعلاج موضوع سبق أن عالجه باللاتينية هيلير Hilaire تلميذ أبيلار Abélard . فكتب تمثيليته عن القديس نيقولا يختلط فيها ـ بصورة غريبة ـ بعض مناظر ألحانه الواقعية بنوع من الإلهام البطولى الذى يذكرنا بكورنى فى بعض الأحيان . وحوالى منتصف القرن الثالث عشر قام روتبيف Rutebœuf ـ الذى لعله يفوق سابقه فى الشعر الغنائى ـ بإنشاء نوع من الأنواع سنرى أنه سيصل إلى درجة كبيرة من الاتساع خلال القرن التالى ، وهو نوع معجزات العذراء ؛ وذلك حين كتب لإحدى الجمعيات « معجزة تيوفيل » التى تعتبر تخطيطاً أوليا لأسطورة فاوست يعتريه النقص فى بعض الأحيان ، ولكنه لايخلو دائماً من فن ، كما يمتاز بقوة التأثير .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ازداد الإقبال على مشاهد الآلام . ويبدو أنها منبعثة من الدرامات الطقوسية ، ولكنها تأثرت أيضاً بالقصائد القصصية التى كان يؤلفها الشعراء المتجولون . وقد ازدهر هذا النوع إلى حد أن قامت فى أواخر القرن جمعيات فى أماكن مختلفة لاهدف لها إلا العمل على استغلاله : وسنرى أن وجود هذه الجمعيات

الدرامية سيصبح فى سنة ١٤٠٢ من الأمور المعترف بها رسمياً عن طريق خطابات البراءة الصادرة من شارل السادس إلى جمعية الآلام الباريسية التى كانت تعرض تمثيلها فى إحدى قاعات مستشفى الترينيقيه . وفى هذه الخطابات أطلق إسم الأسرار [1] Mistères على هذه المشاهد لأول مرة .

وتوجد الآن فى المكتبة الأهلية مخطوطة تحتوى على أربعين «معجزة من معجزات السيدة العذراء بأشخاصها » ترجع كلها إلى النصف الثانى من القرن الرابع عشر : ومن المحتمل أنها تكون قائمة إحدى الجمعيات المجاورة لسوق باريس . وتتميز هذه المسرحيات المستقاة من مصادر مختلفة كل الاختلاف بأنها تقدم لنا فى بعض مناظرها لوحة للحياة البرجوازية المعاصرة مستمدة من الواقع ، كما أنها تحتوى ـ بوجه عام ـ على خطاب فى تكريم العذراء ، وتنتهى جميعها بمعجزة منها .

ويتميز القرن الخامس عشر بانتصار الأسرار : وفى أول الأمر كانت هذه الأسرار قصيرة نوعا ما ، وبسيطة الأسلوب ، ثم بدأت تتسع شيئاً فشيئاً ، وتجمع فى حوارها الشجى فى غالب الأحيان جميع القوالب الغنائية المعروفة

---

(١) بمعنى (تمثيل أو عرض درامى) نقلا عن المعنى « خدمة ، قداس ، احتفال » الذى أضيف إلى كلمة « سر » (Mysterium بلاتينية العصور الوسطى ، بسبب الخلط بينها وبين كلمة Ministerium التى لها هذا المعنى نفسه .

حتى ذلك العهد ، ويعتبر « أوستاش ماركاديه Eustache Marcadet — قاضي كوربي Corbie الكنسي — أول من أشار إلى الفكرة الرئيسية للموضوع فى مقدمة يناقش فيها مقدور الإنسان أمام الله بين « العدل » و« الرحمة » ، وذلك فى تمثيلية عن الآلام التى تستغرق أربعة أيام و ٢٥٠٠٠ بيت من الشعر . وقد اتبع هذه الخطة نفسها أرنوجريبان Arnoul Gréban ونماها حوالى سنة ١٤٥٠ حتى بلغت ٣٤٤٥٠ بيتاً : وتشهد بنجاح هذا العمل ، الذى كتب أصلا للجمعية الباريسية ، مخالصة أعضاء بلدية ابفيل Abbville الذين حصلوا على المخطوطة لتمثيلها فى مدينتهم، كما تشهد بذلك الشهرة التى ظلت تتمتع بها التمثيلية حتى منتصف القرن السادس عشر .

وقد عدلت هذه المسرحية فى سنة ١٤٨٦ ، و بسطت حتى أصبحت تستغرق عشـــرة أيام و٤٥٠٠٠ بيت . وكان ذلك على يد جان ميشيل Jean Miche طبيب أنجيه ، بالرغم من أنه قصر موضوعها على حياة المسيح. و يمكننا أن نقول ـ على نحو ما ـ إن الأسرار من الأعمال الجماعية: إذ أن كل مؤلف فيها كان يبدأ عمله من حيث تركه سالفه ، ويحاول أن يعلى بناءه . ولـكن هذا العمل نفسه لا يلبث أن يتضاءل فى غمرة الإضافات التى أثرته .وقد وصل إلى مرحلة تمامه على يد جريبان ولذلك يجدر بنا أن ندرسه لديه.وذلك

أن تمثيليته « سر الآلام » تعتبر من الأعمـــال الضخمة التي تركتها لنا العصور الوسطى ، وتستحق أن تجعل فى متناول القراء المعاصرين فى نصها الكامل . وهى تعتبر قمة فى نوعها ، كما هى الحال بالنسبة للكاتدرائيات وقصة الوردة ، كما أنها تحمل فى نفسها جراثيم الاضمحلال ، ولكن إذا كانت العصور الوسطى تنهار فيها ، فإنها تنهار من الإسراف فى الحيوية ، وتجاوز حد الاعتدال .

الإخراج :

لعل أصل ابتكارات العصور الوسطى فى ميدان المسرح ينحصر فى الإخراج المتصاحب الذى كان يستعمل فى القرن الثانى عشر (اهتداء القديس بولس) وامتد استعماله حتى عهد كورنى . وينحصر هذا الاخراج فى وضع جميع المناظر منذ البداية بعضها بجانب البعض الآخر ، حيث ينتقل الأشخاص من أحدها إلى الآخر تبعا لضرورات التمثيل ، وفى وسعنا أن نأخذ فكرة عن هذه الطريقة فى بساطتها البدائية من مقدمة القطعة التى لدينا من « البعث » ، وها هى ذى كما ترجمها الأستاذ سيبيه : « وعلى هذا النحو يجب أن نتلو — البعث المقدس . ولنبدأ بترتيب — كل الأماكن والمساكن : — الصليب أولا : ثم القبر بعد ذلك . ويجب أن تكون

هناك غرفة سجن « زنزانة » ـ من أجل حبس المساجين وليكن الجحيم من هذه الناحية ـ والمساكن من الناحية الأخرى ـ ثم السماء ، وعلى المقاعد ـ يوجد أولا « بيلاتوس» مع تابعيه ، وسيكون معه ستة فرسان أوسبعة . وعلى الآخر سيكون قيافا ـ ومعه اليهود ،ـ ثم يوسف الرامى ـ وفى الصف الرابع السيد نيقوديموس . وكل من هؤلاء حوله أتباعه . وفى الصف الخامس حواريو المسيح . ولتكن الماريات الثلاثة فى الصف السادس . وليعمل على تمثيل الجليل فى وسط المكان . ولتمثل فيه أيضا عمواس ـ حيث يقاد عيسى إلى المنزل . وحين يصبح الجميع جلوسا ـ ويسود الهدوء كل الأرجاء ـ يحضر السيد يوسف الرامى ـ ويذهب إلى بيلاتوس ـ ويقول له . . »

وفى تمثيلية آدم يوجد ثلاثة أماكن على الأقل : الفردوس الأرضى فى مكان مرتفع، ومحاط بواجهات منتهية بغرف صغيرة ،ومزخرف بأغصان الأزهار ، ثم الأرض حيث يرى آدم وحواء يعملان بعد خطيئتهما ، ثم الجحيم حيث تخرج الشياطين الذين ينتشرون بين المشاهدين . وذلك أن مسرح العصور الوسطى كان يستخدم هو الآخر طريقة إيصال القاعة بالمسرح،

تلك الطريقة المحببة إلى نفوس بعض الفنيين المحدثين[1]، وأخيرا ينبغى ألا ننسى الكنيسة، حيث كان ينسحب الممثل الذى يمثل الإله حين يغادر المسرح. ويمكننا أن نكوّن لنا فكرة عن التقدم الذى تحقق فى هذا الميدان إذا قرأنا «كتاب سلوك مدير المسرح - وحساب المصروفات الخاصة بسر الآلام التى مثلت فى مونس Mons سنة ١٥٠١». وقد نشره الأستاذ ج. كوهين (شامبيون سنة ١٩٢٥) فهناك سبعون موضعا لمناظر مقامة على تخت طوله أربعون مترا، ابتداء من عجلة الفردوس - التى يجلس أمامها الإله الأب على عرشه - حتى فوهة الجحيم. وأغلب الظن أن إعجاب الجمهور كان يتجه - بوجه خاص - إلى عجائب الآلية، وإلى ظهور الملائكة، وإلى الطوفان، وإلى البحر الذى تسبح فيه سفينته. ولكن كل هذه الروائع كانت تعلن عن انتهاء نوع: فحين يصبح المسرح بين أيدى الآليين وحدهم يكون عهده قد قارب الانتهاء، ولا يبقى إلا انتظار الساعة التى يظهر فيها أحد الشعراء، وربما لم يكن إلا شاعرا مجهولا مثل مؤلف تمثيلية آدم، فيبعث فيه الحياة من جديد بوسائل مرتجلة، وذلك بإيجاد نوع من الائتلاف التام بين النص والإخراج.

---

(١) كذلك يتفق إخراج العصور الوسطى فى رمزيته وتجميد خطوطه مع بعض الاتجاهات فى المسرح المعاصر.

قائمة مختصرة بالمراجع

دراسات :

ج. كوهين G. Cohen :

المسرح فى فرنسا فى العصور الوسطى (المسرح الدينى)

أ. جانروا A; Jeanroy : المسرح الدينى فى فرنسا من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر (مترجمات) .

م. سيبيه M. Sepet : الدرامة الدينية فى العصور الوسطى .

ل. كليدا L. Clédat : المسرح فى فرنسا فى العصور الوسطى .

ل. پتى جوليفيل L. Petit Juleville — الأسرار .

ا. روا E, Roy — أسرار الآلام فى فرنسا من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر .

طبعات :

تمثيلية آدام قام بطبعها :

ك. جراس K. Grass فى Romanische Bibliethek ، مجلد ٦ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٠٧ .

ب. ستيودير P. Studer ، مانشستر سنة ١٩٠٨.

ﻫ. شامار H. Chamard ، باريس ١٩٢٥ (مع ترجمة).

معجزة « المرأة التي حفظتها سيدتنا العذراء من الاحتراق » توجد في المجلد الرابع من طبعة « معجزات السيدة العذراء مع الأشخاص » عن مخطوطة كانجيه Cangé (جمعية النصوص القديمة ، ١٨٧٦ -- ١٨٨٣ سبعة مجلدات)، قام بنشرها ج. بارى G. Paris و ا. روبير U Robert سر الآلام لارنوجريبان ، قام بنشرها (ج. بارى G. Paris) (و ج. رينو G. Raynaud ، باريس سنة ١٨٧٨.

تمثيلية ادم . . .

تمثيلية آدام التى توجـد مخطوطتها الوحيـدة فى حوزة مـكتبة « تور Tours » يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثانى عشر ـ ومن المحتمل أن يـكون الذى قام بـكتابتها شماس نورمندى ، أو إنجليزى نورمندى مجهول الاسم ـ لـكى تمثل خلال أعياد الميلاد فى ميدان الـكنيسة الخارجى، وذلك كما يتبين من الملاحظة المـكتوبة على المخطوطة باللاتينية حول الديكور ، والملابس ، وطريقة الإيمـاء Mimique ، بل وحول إلقاء الممثلين . وتشتمل التمثيلية على ثلاثة أجزاء : سقوط آدم وحواء ، ومقتل هابيل على يد قابيل ، وموكب الأنبيـاء لإعلان قدوم المسيح .

ومن شأن فـكرة الخـلاص عن طريق التـكفير السارية فى أرجاء تمثيلية آدم أن تحقق وحدتها الدرامية .

المنظر الأول

الرمز[1] : يا آدم !

آدم : مولاى !

الرمز : لقد خلقتك من تراب الأرض[2] .

آدم : أعرف ذلك ، يامولاى .

الرمز : لقد صورتك على مثالى ، و برأتك على صورتى ، من تراب. فلا يصح لك ـ فى أية حال ـ أن تجرد على حربا .

آدم : كلا ، لن أفعل ، بل سأومن بك ، سأطيع خالقى .

الرمز : لقد وهبتك صحبة طيبة ! إنها زوجك ، واسمها حواء . إنها زوجك ونظيرك ، ويجب عليك أن تكون وفيا لها ، وعليك أن تحبها ، وعليها أن تحبك ، وستحظيان ـ كلا كما ـ

---

(١) الرمز الألهى .

(٢) « وخلق الرب الإله آدم من تراب الأرض » سفر التكوين إصحاح ٢ ، آية ٧ .

يحبى . عليها أن تخضع لسلطانك ، وعليكما أن تخضعا لإرادتى ، لقد خلقتها من ضلعك ، فهى غير غريبة عنك ، بل منك جبلت . صورتها من جسمك ، فهى خارجة منك ، لا من شىء آخر . لا يكن بينكما أى شقاق ، بل لا يكن بينكما إلا الحب العظيم ، والمودة العظيمة : هذا هو قانون عشرتكما . (لحواء) وإليك أنت أيضا ، ياحواء ، سأوجه كلامى ، فتدبرى هذا الكلام ، واستفيدى منه : إذا نفذت إرادتى ، حفظت ماتنطوين عليه من طيبة ، أحبى فى خالقك وكرميه ، واعترفى لى بأنى مولاك . وتوفرى على خدمتى بكل مالديك من حماس ، وقوة ، وروح . أحبى آدم وحوطيه بحنانك . إنه زوجك ، وأنت زوجه . برهنى لى فى كل وقت أنك لست على استعداد لعصيانه ، اخدميه وأحبيه من كل قلبك . هذا هو قانون الزواج ، فإذا أحسنت معونته ، جعلتك و إياه موضع تكريمى .

حواء : سأسير — يامولاى — تبعا لما يرضيك ، ولن أحاول أن أحيد عن ذلك بأية حال ، سأعترف لك دائما بأنك المولى ، وله بأنه الزوج والسيد ، سأكون ... بة له فى كل حال ، وسيتلقى

مني خير النصائح ، وسأبذل كل مافي وسعى لرضائك ، وخدمتك .

الرمز : (يجعل آدم يقترب منه ويقول له بإصرار شديد من ذي قبل) [1]
انصت يا آدم ، وافهم قولي : لقد خلقتك ، والآن ها هي ذي الهبة التي أهبك أياها : تستطيع ـ إذا أطعتني ـ أن تعيش أبدا ، والا يعتريك المرض أو الخوف ، ولن تعرف الجوع ، أو تشرب عن حاجة إلى الري . ولن يمسك زمهرير ولا حر ، ستحيا في سرور ، فلا يصيبك النصب ، وتظل في نعيم ، فلا يمسك الألم . وستتابع حياتك كلها في الانشراح ، ستدوم إلى الأبد ، ولن يعتريها القصر ، أقول لك ذلك ، وأريد من حواء أن تسمعه ، فإذا لم تفهمه كانت حمقاء ، لكما الولاية على الأرض كلها ، على طيرها وحيوانها وجميع سكانها . ولن يضير كما في شيء أن تكونا موضعاً للحسد ؛ لأن العالم بأسره سيكون تحت إمرتكما ، وأمامكما سأضع الخير والشر كليهما ، فمنذ الآن زنا كل شيء بغاية الدقة ، ولا تسلكا سبيلا يتنافى والوفاء لي ، دع الشر والزم والخير ، أحبب مولاك ، وابق معه ، ولا تهجر نصيحته من أجل أية نصيحة أخرى ، فإذا

---

(١) هذه الملاحظة ـ كـكل الملاحظات الأخرى في تمثيلية آدم ـ مكتوبة باللاتينية ، ويلاحظ أن المؤلف يحدد الأوزان ، تبعا للمواقف والأحاسيس التي يجب أن تثيرها في السامعين . انظر ص ١٦

فعلت ذلك بعدت عن طريق الخطيئة .

آدم : حمداً جزيلا لك ، أنت يامن خلقتني ووهبتني هذه النعمة الجلى حين وضعت الخير والشر تحت تصرفي .سأكرس إرادتي لخدمتك. أنت مولاي، وأنا مخلوقك. أنت الذى برأتني وأنا صنيعتك . إن إرادتي لن تعصاك بقدر ما تتحمس لخدمتك .

الرمز : (يشير بيده الى الفردوس) يا آدم !

آدم : مولاي!

الرمز : سأخبرك بمقصودي . انظر إلى هذه الجنة .

آدم : ما اسمها ؟

الرمز : الفردوس .

آدم : إنها رائعة الجمال .

الرمز : أنا الذى غرستها ونسقتها ،ومن سكنها صار حبيبي . وها أنذا أسامها اليك ،لتسكنها وتحتفظ بها . (يجعلهما يدخلان الفردوس قائلا :) ادخلاها[1]

آدم : أنستطيع دخولها؟!

(١) المؤلف هنا يعدل نص سفر التكوين الذى يقول : ان حواء خلقت فى الجنة

الرمز : وأن تعيشا فيها أبد الآبدين . وليس لكما أن تخشيا فيها شيئا ، وفيها لن تموتا ، ولن يعتريكما المرض .
(الجوقة تغنى الغناء الجماعى) : إذن لقد فعل الله .

الرمز : (يمد ذراعه نحو الفردوس) : سأخبرك بطبيعة هذه الجنة : ليست هناك من متعة تنقصها ، ليس هناك من خير فى هذا العالم إلا يوجد فيها بكل كفاية . وفيها لن تعانى المرأة الأتراح من أجل الرجل ، ولن يعانى الرجل عاراً أو خوفاً من أجل المرأة . ولن يحتاج الرجـــل لارتكاب الخطيئة من أجل التناسل ، ولن تعانى المرأة الآلام من أجل الوضع . فيها ستحيا أبد الآبدين ، فمناخها جيد جداً ولذا ستظل سنك دائماً على ما هى عليه دون أى تغيير . لن تخشى فيها الموت ؛ لأنه لن يستطيع أن يصيبك ـ فلا تخرج منها ، واجعل منها مقامك .

الجوقة : (تغنى الغناء الجماعى) : « قال الله لآدم » (ثم يقوم الله بتوجيه نظر آدم الى أشجار الجنه ويقول) : تستطيع أن تأكل من جميع هذه الفواكه كما تشاء ، (يوجه نظره الى الشجرة المحرمة وثمرتها) ، ولكنى أنهاك عن الأكل من هذه

فإنك إن أكلت منها مت من فورك ، وفقدت حبي ،
وأصبحت تعس المصير .

آدم : سأحافظ على وصيتك بحذافيرها ، لن نخالفها في شيء ،
لا أنا ولا حواء . أمن أجل ثمرة واحدة تضيع كل هذه
السكنى ! إنه من العدل أن يقذف بي إلى الخارج في
مهب الرياح ؛ إذا أنا تخليت عن حبك من أجل تفاحة.
إن من يجدف و يخون مولاه يجب أن يطبق عليه قانون
الخونة . (الرب يذهب نحو الكنيسة . آدم وحواء
يتنزهان في الفردوس و يتسليان تسلية بريئة).

المنظر الثانى

(فى هذه الأثناء تنتشر الشياطين فى أرجاء المكان بحركات وإشارات مناسبة ـ وتقترب بالتتابع من الفردوس وهى تلفت نظر حواء إلى الفاكهة المحرمة ، كما لو كانت تريد إغراءها بالأكل منها . وأخيرا يذهب إبليس إلى آدم .)

إبليس : ماذا تفعل يا آدم ؟

آدم : أعيش هنا فى بهجة شاملة .

إبليس : أأنت بخير ؟

آدم : لا أحس أن شيئا يضايقنى .

إبليس : يمكن للمرء أن يكون أحسن حالا .

آدم : لا أدرى كيف يمكن ذلك .

إبليس : أتريد أن تعرف ؟

آدم : لن تجعلنى هذه المعرفة خيرا مما أنا الآن .

إبليس : إنى أعرف كيف .

آدم : وماذا يعنينى من ذلك ؟

إبليس : ولم لا ؟

آدم : هذا لن ينفعنى فى شىء .

إبليس : بل سينفعك .

آدم : لا أدرى متى .

إبليس : لن أقول الك ذلك بصورة عابرة .

آدم : قله لى الآن .

إبليس : كلا ، إلا بعد أن تكل من كثرة رجائى .

آدم : لست فى حاجة إلى معرفته .

إبليس : حقا إنك لن تستطيع أن تنال من كل ذلك أية فائدة : وأنت لا تعرف كيف تستمتع بالخير الذى فى حوزتك .

آدم : كيف ذلك ؟

إبليس : أتريد أن تعرف كيف ؟ سأخبرك فيما بينى و بينك .

آدم : فليكن .

إبليس : أنصت يا آدم ، أعرنى سمعك .

آدم : كلى آذان صاغية .

إبليس : أتصدقنى ؟

آدم : نعم ، بكل تأكيد .

إبليس : فى كل ما أقوله ؟

آدم : إلا فى شىء واحد .

إبليس : وما هذا الشىء ؟

آدم : سأخبرك به : ذلك أنى لن أغضب خالقى .

إبليس : أتخافه إلى هذا الحد ؟

آدم : نعم ، الحقيقة أنى أحبه ، وأخافه .

إبليس : ليس هذا من الحكمة ؛ ماذا فى مقدوره أن يفعل ؟

آدم : كل الخير والشر .

إبليس : لقد أصبحت مجنونا منذ اليوم الذى اعتقدت فيه أنه يمكن للشر أن يصيبك ، ألست غارقا فى المجد ؟ إنك منزه عن الموت .

آدم : لقد أخبرنى الرب بأننى سأموت إذا خالفت وصيته .

إبليس : وما هى هذه المخالفة الكبيرة ؟ إنى أريد أن أعرفها دون أى تأخير .

آدم : سأخبرك بها بكل صراحة : لقد أدلى إلى بوصية ، وهى : أنى أستطيع الأكل من جميع فواكه الجنة ، ماعدا واحدة فقط ، فقد نهانى عن الأكل منها ، ولن أمسها بيدى .

إبليس : وأى فاكهة تلك ؟

آدم : (يرفع يده ويشير بها الى الفاكهة المحرمة) أتراها ؟ إنها هى التى نهانى عنها نهيا قاطعا .

إبليس : أتدرى لماذا ؟

آدم : أنا ؟ كلا ، بكل تأكيد .

إبليس : سأخبرك بالسبب : إن الفواكه الأخرى لا تعنيه فى شىء ، أما هذه التى تتدلى من أعلى ـ (مشيرا بيده الى الفاكهه المحرمة) ـ فإنها شىء آخر ، إنها شجرة المعرفة التى تؤدى إلى معرفة كل شىء . فإذا أكلت منها ، فعلت خيرا .

آدم : أنا ؟ وأى خير ؟

إبليس : سترى ذلك ، سيرتفع الغطاء عن عينيك فى الحال ، وسينكشف لك كل ماهو كائن ، وسيصبح فى مقدورك أن تفعل كل ما تريد ، فهذا خير جزيل تستحوذ عليه . كل منها تنل خيرا ، ولن تعود فى حاجة إلى خوف ربك فى شىء ، بل ستصبح ندا له فى كل شىء(١) . وهذا هو السبب الذى دفعه إلى تحريمها عليك ، أتصدقنى ؟ ذق هذه الفاكهة .

---

(١) انظر سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الآيتين ٤ ، ٥

آدم : لن أفعل ذلك .

إبليس : يالها من مهزلة ! لن تفعل ذلك ؟

آدم : كلا .

إبليس : إذن فأنت معتوه ! وسيأتى يوم تتذكر فيه ما أقوله لك .

(الشيطان ينسحب ، ويذهب الى الشياطين الأخرى ، وبعد أن يجول مليلا فى المكان يرجع الى إغراء آدم ، والبشر والمرح يبدوان عليه)

إبليس : ماذا تفعل ، يا آدم ؟ ألن تغير رأيك ؟ ألا تزال غارقا فى أفكارك الحمقاء ؟ أظن أنى قلت لك ذات يوم : إن الله قد جعلك هنا عالة عليه ، وأنه لم يضعك هنا إلا لتأكل هذه الفاكهة ، أليست لك إذن أية متعة أخرى ؟

آدم : نعم بكل تأكيد ، لا شىء ينقصنى .

إبليس : لن تصعد أبدا إلى أعلى مما أنت ؟ أتعتبر أسمى المكارم أن يكون الرب قد جعلك بستانيه ؟ إن الرب قد جعلك حارسا لجنته . ألن تبحث لنفسك قط عن وظيفة أخرى ؟ أهو لم يخلقك إلا لكى تملأ كرشك ؟ ألا يريد أن يسمو بك إلى مكانة أخرى ؟ أنصت ، يا آدم ، استمع إلى : إذا أصغيت إلى نصيحتى التى يحق لك أن تثق فيها ، استطعت أن تصبح بلا مولى ، وأن تصير ندا للخالق . بل سأقول لك

الحقيقة فى أخصر عبارة : إنك إن أكلت التفاحة (يمد يده نحو الجنة) أصبحت لك السيادة، واستطعت أن تقتسم السلطان مع الرب .

آدم : اخرج من هنا .

إبليس : ماذا يقول آدم ؟

آدم : اخرج من هنا. إنك الشيطان، ولست تقدم إلا النصائح الكاذبة.

إبليس : أنا ؟ كيف ذلك ؟

آدم : إنك تريد أن تسلمنى إلى الفناء ، وأن تسىء ما بينى و بين مولاى، وأن تحرمنى من السرور ، وأن تلقى بى فى بحر من الشقاء . اخرج من هنا ولا يكن لك من الصفاقة ما يدفعك إلى العودة أمامى مرة أخرى ! إنك خائن عديم الإيمان .

(يبتعد إبليس عن آدم حزينا مطأطىء الرأس ، ويذهب حتى أبواب الجحيم حيث يتناقش مع الشياطين الأخرى ، ثم يجول بين الناس ، وأخيرا يقترب من الفردوس من ناحية حواء التى يخاطبها فى مرح وحنان) .

المنظر الثالث [1]

إبليس : لقد حضرت هنا من أجل أن أكلمك ، ياحواء .

حواء : قل لى ، أيها الشيطان ، ماذا تريد ؟

إبليس : إنى أسعى إلى مصاحتك ، وإلى سعادتك .

حواء : ليمنحنا الرب إياهما .

إبليس : لاتخاف ، فإنى أعرف أسرار الفردوس منذ زمن طويل . وأريد أن أقص عليك طرفا منها .

حواء : ابدأ ، إذن ، فإنى مصغية إليك .

إبليس : أستصغين إلى ؟

حواء : نعم ، ولن أغضب فى شىء .

إبليس : هل ستكتمين السر ؟

حواء : نعم ، أقسم لك .

إبليس : وإذا أذيع ؟

حواء : لن يكون ذلك على يدى .

---

(١) هذا المنظر مستوحى من التكوين ٣ ، ١ ـ ٥

إبليس : سأثق فيك ، ولن أطلب منك أى ضمان .

حواء : فى وسعك أن تثق فى كلمتى .

إبليس : إنك سريعة الفهم ، فقد رأيت آدم ، ولكنه أظهر حمقا شديدا .

حواء : إنه شديد المراس بعض الشىء .

إبليس : صيلين . إنه أشد مراسا من الجحيم .

حواء : إنه جد صريح .

إبليس : كلا ، بل شديد الخضوع . فإذا كان لا يريد أن يبالى بنفسه فليبال بك على الأقل . إنك مخلوقة ضعيفة مفعمة بالحنان والمودة ، ووجهك أنضر من وجه الوردة ، إنك أنصع بياضا من البلور والثلج الذى يتساقط فوق جليد الوادى ، وقد جمع الخالق بينكما وأنتما جد متنافرين : فأنت شديدة الحنان ، وهو شديد القسوة ، ومع ذلك فأنت أحكم منه ؛ لأنك تخضعين قلبك لعقلك؛ لذلك يسر المرء أن يوجه إليك حديثه. إنى أريد أن أتكلم معك .

حواء : تستطيع أن تثق بى .

إبليس : أريد ألا يعرف أحد ذلك .

حواء : ومن الذى يهمه أن يعرفه ؟

إبليس : حتى ولا آدم .

حواء : كلا ، أقسم لك .

إبليس : إذن سأوضح لك الأمر ، فأنصتي إلى . ليس الآن فى هذا المكان سوانا نحن الإثنين ، أما آدم فهناك ، ولن يستطيع أن يسمعنا .

حواء : ارفع صوتك ، فلن يسمعنا ، مهما تكلمت عاليا .

إبليس : إنى أحذرك من شرك نصب لك فى هذه الجنة ؛ ذلك أن الفاكهة التى أباحها لكما الرب ليست جيدة ، أما تلك التى حرمها عليكما بكل صرامة ، فإنها ذات مزية جلى : ففيها نعيم الحياة ، وفيها القوة والسيادة ، وفيها المعرفة الشاملة ، وفيها الخير والشر .

حواء : ما نكهتها ؟

إبليس : من السماء ، ولا شك أن المصير الذى يليق بجمال جسمك ووجهك ، ليس أقل من أن تكونى ملكة العالم ، ملكة الجنة والنار ، وأن تعرفى كل ما هو موجود ، وأن تكونى سيدة الجميع .

حواء : أهذه الفاكهة على نحو ما تقول ؟

إبليس : نعم ، حقيقة .

حواء : (بعد أن تتأمل الفاكهة المحرمة وقتاً طويلا) : إن مجـــرد رؤيتها يفعمني بالراحة .

إبليس : فـكيف يكون الحال لو أكلت منها ؟

حواء : ما يدريني ؟

إبليس : ألا تصدقينني ؟ خذيها أولا ، وناوليها آدم ، وفي الحال سينزل عليـكما تاج من السماء ، وتصبحان ندين للخالق . ولن يستطيع أن يخفي عليكما مقاصده ، لن تـكادا تذوقان الفاكهة حتى يتغير قلبكما . ستصحبان ـ بلا أدنى شك ـ مساويين للرب في الطيبة، وفي القدرة . فذوقي هذه الفاكهة .

حواء : ما أشد شوقي لأكلها ؟

إبليس : لا تصدقي آدم .

حواء : سأذوقها فيما بعد .

إبليس : متى ؟

حواء : أنتظر حتى ينام آدم

إبليس : كليها ، لا تخافي ، فإن الانتظار ضرب من الصبيانية .

(يبتعد الشيطان عن حواء ، ويعود إلى الجحيم . آدم يقترب منها ، وقد بدا عليه الامتعاض من تبادلها الحديث مع إبليس) .

المنظر الرابع

آدم : أخبريني ، أيتها المرأة ، ماذا طلب منك هذا الشيطان اللعين ؟ ماذا أراد منك ؟

حواء : كان يكلمني عن شرفنا .

آدم : لا تصدق هذا الخائن ... نعم ، إنه خائن .

حواء : أعرف ذلك جيدا .

آدم : أنت ؟ كيف عرفته ؟

حواء : قلت لك : إني أعرف ذلك ، فماذا يهم معرفة الطريق الذي وصلت به ؟

آدم : سيحملك على تغيير رأيك .

حواء : كلا ؛ لأني لن أصدق شيئا يقوله قبل أن أختبره .

آدم : لا تدعيه يقترب منك منذ الآن ، لأنه سيء النية إلى أقصى حد ، فقد سبق له أن أراد خيانة مولاه والسمو عليه . مثل هذا الشقي الذي لم يتورع عن ذلك السلوك ، لا أريد أن يحظى منك بحسن استقبال .

(حية جيدة المحاكاة تصعد على جذع الشجرة المحرمة ، حواء تقرب منها أذنها كما لو كانت تريد أن تنصت لنصيحتها . ثم تقتطف التفاحة ، وتقدمها لآدم ولكنه يرفضها)[1]

---

(١) انظر سفر التكوين ٣ ، ٦

حواء : ـ كل ، يا آدم ، إنك تجهل كنهها ، فلتأخذ هذا الخير الذى صادفنا .

آدم : ـ أهى طيبة ؟

حواء : ـ ستعرف ذلك ... لن تستطيع معرفته دون أن تذوقها .

آدم : ـ إنى أخافها .

حواء : ـ دع عنك هذا !

آدم : ـ لن آكل منها .

حواء : ـ إن ترددك يدل على حماقتك .

آدم : ـ إذن ، سآخذها .

حواء : ـ كل منها ؛ فتعرف الخير والشر ، وسأبدأ أنا بالأكل منها .

آدم : ـ وأنا بعدك .

حواء : ـ إنها لاخطر منها (تأكل جزءاً من التفاحة ... لآدم) لقد ذقتها : الله ! ما أطيبها ؟ لا أعتقد أنى ذقت شيئاً أطيب منها . ياالطيب مذاق هذه التفاحة !

آدم : مامذاقها ؟

حواء : لم يتأت لإنسان أن ذاق مثلها . الآن انكشف الغطاء

عن عيني حتى أصبحت أشبه الرب القدير . صرت أعرف كل ما كان ،وكل ما لابد أن يكون ، وأنا الآن أسيطر على كل شيء . فكل ، يا آدم ، لاتتردد ، خذ هذه التفاحة ، إن ذلك من أجل سعادتك .

آدم : (يأخذ التفاحة من يد حواء) : سأصدق ماتقولين ؛ فما أنت إلا نصف مني .

حواء : كل ، فليس هناك ماتخشاه .

(آدم يأكل جزءا من التفاحة ، وفي الحال يعرف خطيئته ، فيطأطىء بصورة تجعل الجمهور لايراه ، وينزع عنه ملابس العيد ، ويرتدى ملابس زريه مصنوعة من ورق شجرة التين[1] ، ثم يبدأ في الانتحاب وقد بدا على وجهه أشد أنواع الألم) ؟

آدم : وامصيبتاه ! ماذا ارتكبت ، أنا ، أيها الآثم ؟ لقد مت الآن ، وانتهى الأمر ، لقد مت دون رجعة ، مادمت قد هويت من علياء وضعى ! لقد تغير مصيرى ، ويا لسوء ماتغير ! كان من قبل مصيراً سعيداً ، وها هو ذا الآن غاية في القسوة . هجرت خالقي اتباعا لنصيحة امرأة سيئة . وامصيبتاه ! ماذا ارتكبت ، أنا ، أيها الآثم؟ كيف لى أن

---

(١) انظر سفر التكوين ٣ ، ٧

أعول على خالقى الذى هجرته بحماقتى ؟ لم يسبق لى قبل أن أعقد صفقة فى مثل هذا الخسران . الآن عرفت معنى الخطيئة . آه ! أيها الموت ، لماذا تتركنى على قيد الحياة ؟! لماذا لم يتخلص منى العالم ؟ لا بد لى أن أهوى إلى قاع الجحيم . فى الجحيم سيكون مقرى حتى يأتى من يخلصنى ، فى الجحيم ستكون حياتى . وأنى لى – هناك – بمن يأتى لنجدتى ؟ أنى لى – هناك – بمن يخف لإنقاذى ؟! من ذا الذى سيخلصنى من مثل هذا العذاب ؟ لماذا أرانى سلكت هذا السلوك المشين تجاه مولاى ؟ لقد ضعت دون رجعة ، لقد بلغ سلوكى تجاه ربى درجة من السوء تجعلنى عاجزاً عن الدفاع عن نفسى أمامه ؛ لأنى على خطأ وهو على حق . أيها الرب ، ما أبشع قضيتى[٢] ! من ذا الذى سيتذكرنى بعد اليوم ؟ إننى مذنب لا عذر له ؛ لأنى أذنبت فى حق ملك المجد ، فى حق ملك السماء . ليس لى صديق ولا جار يستطيع أن يخلصنى مما

---

(١) هنا نرى آدم — بالرغم من يأسه — يواجه كارثته مواجهة رجل القانون . والحقيقة أن الأدب الفرنسى فى العصور الوسطى كثيرا ما يلبس المسائل الخلقية لباس المسائل القانونية ؛ فآدم هنا يعبر عن أمله فى الخلاص ، ولكنه لا يوجه كلمة استعطاف واحدة للرب.

أنا فيه . من ذا الذى أسأله العون ، إذا كانت زوجتى قد خدعتنى ، زوجتى التى منحنى الرب إياها لتكون نصفى ؟ لقد وجهت إلى مشورة سيئة : آه ، ياحواء ! (ينظر الى حواء زوجته ، قائلا :) . آه أيتها المرأة الحمقاء ، إنك لم تولدى منى إلا من أجل شقائى ، ياليته كان قد حرق ذلك الضلع الذى قادنى إلى هذا الوضع السىء ! ألاليت النار كانت قد أبادت ذلك الضلع الذى ألقى بى فى هذا الإضطراب الشامل ! لماذا لم يحرق الرب هذا الضلع حين أخذه منى ؟ لماذا لم يقتلنى ؟ إن الضلع قد خان الجسم كله ، وأصابه بالجنون ، ووضعه فى أسوأ حال . لم أعد أدرى ما أقول أو أفعل . فإذا لم تتداركنى نجدة من السماء ، فلن أتخلص من هذا العذاب . هذا هو الداء الذى يعذبنى . آه ، ياحواء ، لقد كان من سوء حظى أن جاء اليوم الذى أصبحت فيه زوجتى : ياله من عذاب أليم انقض على فى تلك اللحظة ! الآن أصبحت ضائعاً بفضل مشورتك ، وبفضل مشورتك ترديت فى الشر ، وهويت من أعلى مكان ، ولن يستطيع إنسان حى أن يخلصنى مما أنا فيه مالم يتدخل إله الجلال .

ماذا أقول؟ واأسفاه!! لماذا ذكرت اسمه ؟ أتراه سيساعدني؟ لقد أثرت غضبه . لن يستطيع أحد أن يقدم لى يد العون إلا الابن الذى سيخرج من أحشاء مريم . لا أدرى ماذا سيحل بنا بعد أن فقدنا إيماننا بالله ، والآن ليكن مايريد الله أن يكون ، فليس لى إلا أن أموت .

المنظر الخامس

(الجوقه تغنى الآيه Lumdiam bularet وبعد النشيد يقبل الرب حاملا بطرشيلا[1] ètole . ويدخل الفردوس وهو يتلفت فيما حوله باحثا عن آدم . ولكن آدم وحواء يختبئان فى ركن من الفردوس مظهرين أنهما يعرفان سوء حالهما)

الرمز : آدم ، أين أنت ، يا آدم ؟

(ينهضان كلاهما واقفين أمام الرب ، ولكنهما لا يقفان مستقيمين ، بل منحنيين أمام عار الخطيئة ، وقد بدا عليهما الحزن الشديد)

آدم : إنى هنا أيها المولى الجميل . لقد اختبأت بسبب غضبك ، وجئت هنا لأنى عار كل العرى .

الرمز : ماذا فعلت ؟ كيف تأتى لك أن تحيد عن الطريق المستقيم ؟ من الذى انتزعك من حالتك السعيدة ؟ ماذا فعلت ؟ لماذا يعتريك العار ؟

---

(١) حلية طقوسية تتكون من شريط من النسيج يحمل ثلاثة صلبان و ينزل من العنق حتى القدمين . وفى بداية التمثيلية يظهر الرمز الإلهى مرتديا عباءة طقسية طويلة ذات كمين واسعين ؛ وكان يلبس هذه العباءة فى بادىء الأمر الشماسة ، وبعد ذلك لبسها القس المطارنة . أما « البطرشيل » فشعار القضاء ، ولذلك لا يظهر الرمز الإلهى هذه المرة باعتباره خالقا ، كما كان الحال من قبل ، بل باعتباره قاضيا » . (هـ . شاتار H. Chenard ، « سر آدم » ، ص ٧١ ، هامش ٢) .

آدم : كيف يجوز لى أن أدخل معك فى سؤال وجواب ؟

الرمز : لم تكن ، خلال اليوم السابق ، تنطوى على شىء يشعرك بالعار ،والآن أراك حزينا كئيبا ، ومن تكون هذه حاله لا بد أن يكون قلق الضمير .

آدم : لقد بلغ شعورى بالعار أمامك ، يامولاى ، حدا جعلنى أختبىء

الرمز : ولماذا ؟

آدم : هناك عار كبير يلطخنى ،فلا يجعلنى أجرؤ على النظر فى وجهك.

الرمز : لماذا لم تطع أمرى ؟ أعاد عليك ذلك بالربح ؟ أنت عبدى وأنا مولاك .

آدم : لا أستطيع أن أقول لك عكس ذلك .

الرمز : لقد برأتك على مثالى : فلماذا خالفت وصيتى ؟ لقد صورتك على صورتى بكل دقة ، وكان جزائى منك أن سببت لى كل هذه الإهانة .إنك لم تراع نهيى ، وخالفته عامدا . لقد أكلت الفاكهة التى نهيتك عنها بكل صراحة ، واعتقدت أنك بذلك أصبحت نداً لى ! فهل تريد ـ يا ترى ـ أن تكون جفاخا مضحكا ؟

آدم : (يمد يده نحو الرب ، ثم نحو حواء) : إن المرأة التى منحتنى

إياها هى أول من ارتكب هذه المعصية . فهى التى ناولتنى الفاكهة ، فأكلتها . والآن أرى أنى فعلت ذلك لشقائى : لقد أخطأت حين أكلت منها : أسأت التصرف بسبب زوجتى[1] .

الرمز : لقد صدقت زوجتك أكثرمما صدقتنى ، وأكلت الفاكهة دون إذنى . والآن هاهو ذا الثمن : ملعونة الأرض التى تبغى أن تبذر فيها قمحك ، إنها لن تحمل ثمارا من أجلك . إنها ستكون ملعونة تحت يدك ، ومن العبث أن تحاول استثمارها. من أجلك ستصبح عقيماً ، ولن تنتج غير الشوك والحسك ، وستصبح بذورك ملعونة تحت الحكم الذى قضى به عليك ، ولذا سيعتريها الفساد بالكدر والنصب ستأكل خبزك ، و بعرق جبينك طوال الليل والنهار ستعيش[2] . (يلتفت إلى حواء وعليه سيما التهديد) : وأنت ، ياحواء ، أيتها المرأة السيئة ، لقد أعلنت على الحرب ، ولم تراع وصاياى .

حواء : الحية الملعونة هى التى خدعتنى[3] .

---

(١) انظر التكوين ٣ ، ١٢ .

(٢) انظر التكوين ٣ ، ١٧ — ١٩

(٣) انظر التكوين ٣ ، ١٣

الرمز : بسببها اعتقــــدت أنك ستصبحين نداً لى ؟ والآن أتستطيعين أن تخمنى ؟ فيما مضى كانت لـكما السيادة على كل ما تدب فيه الحياة ، فـكيف فقدتها بهذه السرعة؟ ها أنت ذى حزينة خجلة . أترين أنك رابحة أم خاسرة سأجازيك بمـا أنت أهل له ، وسأدفع إلك الثمن الذي يستحقه عملك .

ستنقض عليك المصائب من كل جانب . ستحملين أولادك كرها[1] ، وستلدينهم كرها ، وسيقضون كل حياتهم غارقين فى بحر من القلق . هذه هى الآلام ، هذا هو الخراب الذى ألقيت بنفسك فيه ، أنت وذريتك. وكل من سينحدرون منك سيبكون على خطيئتك .

حواء : لقد أتيت عملا سيئاً ! وكان ذلك فى لحظة جنـون . فمن أجل تفاحة سأعانى كل هذا الضرر الذى سيغمرنى بالألم ، أنا وذريتى : فائدة صغيرة تكبدنى عقاباً كبيراً . وإذا كنت قد أذنبت ، فلم يكن ذلك من غرائب الأمور ؛ لأن الحية الملعونة هى التى خدعتنى . فهى خبيرة فى ميدان الشر ولا تمت إلى النعجة بشبه . ومن الخطل أن يتخذ المرء منها نصيحة

(١) انظر التكوين ٣ : ١٦

لقد أخذت التفاحة . والآن أعلم أني ارتكبت حماقة؛ لأنك كنت قد حرمتها ، ومن ثم أعترف بأني قد اقترفت خيانة! لقد أخطأت حينما ذقتها ، وها أنذى موضع لبغضك، فمن أجل ثمرة ضئيلة لا أرى لى محيصاً من فقدان الحياة .

الرمز : (مهددا الحيه) وأنت أيتها الحية ، كونى ملعونة ! سأسترجع منك حقوق . سترحفين على بطنك ما دمت على قيد الحياة . ولن تأكلى غير التراب ، سواء أكنت فى الغابة أم فى السهل أم فى البرية . وستقوم البغضاء بينك و بين المرأة حيث ستظل عدوة لك إلى الأبد . ستسعين إلى لدغ عقبها ، وستقوم هى بنزع حمتك . وتسحق رأسك بمطرقة ثقيلة تسبب لك أقصى أنواع العذاب [1] . وستحرص أيضاً على الانتقام منك . لقد أخطأت حين دبرت خيانتها ، فإنها سترغمك على إحناء رأسك . وسيأتى يوم يخرج فيه من بين أحشائها سليل يكشف عن ضروب نفاقك كلها . (ثم يطردهم الرب من الجنة قائلا :) والآن، اخرجوا من الجنة؛

---

(١) هذه الفقرة مستوحاة من سفر التكوين ٣ ، ١٤ — ١٥ .

فقد استبدلتم بها دار إقامة سيئة . على الأرض ستشيدون بيوتكم[1]، ولم يصبح لكم أى حق فى الجنة ، وليس لكم أن تطالبوا بشىء فيها . ستخرجون منها دون عون . ليس لكم فيها أى حق . فاتخذوا لكم فى غيرها مقراً . وبخروجكم منها ستتخلى عنكم السعادة . ومنذ الآن ستعرفون الجوع والتعب ، ستعرفون العذاب والألم خلال أيام الأسبوع جميعاً. وستكون إقامتكم فوق الأرض إقامة سيئة ، ثم تموتون فى نهاية الأمر ، ولا تكادون تذوقون الموت حتى تذهبوا إلى الجحيم من فوركم . ستكون الأرض مأوى أجسامكم ، أما أرواحكم ،فإلى الجحيم مأواها حيث يقف الملاك لها بالمرصاد . وستصبحون تحت سلطان الشيطان ، ولن يكون فى مقدور أحد أن يحفظكم منه ، لن يستطيع أحد أن يكون لكم عوناً إذا أنا لم تأخذنى بكم شفقة[2] (الجوقة تغنى الآية Jmsudore vultus tui) وحيئذ يأتى الملاك مرتديا لباساً أبيض وممسكا بيده سيفاً متوهجاً .

---

(١) انظر سفر التكوين٣ ، ٢٣

(٢) إشارة خفية إلى الفداء المقبل .

(الرب يوقفه على باب الفردوس ويقول له :)

الرمز : احرس لى الفردوس جيداً . واحذر أن تدخلها هذه الذرية الطالحة . واحرص على ألا يحصل على القدرة أو الإذن بمس فاكهة الحياة بل سد عليه الطريق بهذا السيف المتوهـج .

(وحين يخرج آدم وحواء من الجنة يظلان متعبين مطأطئى رأسيهما حتى يمسا الأرض ، ويبدو عليهما الحزن والخجل . الرب يشير إليهما بيده وقد أدار عنهما وجهه نحو الفردوس ، فى حين تترنم الجوقة بالآية quasi Unus وبعد النشيد يرجع الرب نحو الكنيسه)

المنظر السادس

(يرى آدم و بيده الفأس ، وحواء ومعها المجرفة وقد بدآ يفلحان الأرض ، و يبذران فيها القمح . ثم يذهبان لاتجاه مكان يجلسان فيه قليلا من فرط التعب في العمل ، ويريان من حين لحين يرفعان بصريهما نحو الجنة وهما يبكيان ، ويضربان بأيديهما على صدريهما . وفي هذه الأثناء يقبل الشيطان ويغرس الشوك والحسك في ارضهما ، ثم يذهب . آدم وحواء يرجعان ، ولا يكادان يريان الشوك والحسك حتى يتملكهما الهم الشديد ، ويأخذان في قرع صدريهما وفخذيهما بحركات وإشارات تدل على الألم ، ويبدأ آدم في الانتحاب) :

آدم : وا أسفاه ! ما أضعفني أمام شقوتي التي رأيتها منذ اليوم الذي انقضت فيه خطيئاتي على ، لأني هجرت مولاي المعبــود . من ذا الذي يستطيع أن يخف لنجدتي ؟ (ينظر الى الفردوس ويداه ممدودتان — نحوها ، وقد طأطأ رأسه في خضوع ويتابع نحيبه) أيها الفردوس ، أيها المقام الجميل ، ياحديقة المجد ، ما أجمل النظر إليك ! الحقيقة أني طردت منها بسبب خطيئتي ، وقد فقدت كل أمل في العودة إليهــا . كنت فيهــا ، ولم أكد

أستمتع بها ، صدقت المشورة التي لم تلبث أن أدت إلى طردى ، والآن أرانى نادماً ، ويحق لى أن أحزن عليها ، ولكن فات الأوان ، ولم يصبح فى مقدور لهفاتى أن تفعل شيئاً . أين كانت بصيرتى ؟ أين كان عقلى حين هجرت ملك المجد من أجل إبليس ؟ ها أنذا الآن أتألم ، ولكن دون جدوى . إن خطيئتى ستسجل فى التاريخ . (يمد يده نحو حواء التى تقف وحدها أعلى منه قليلا ، ويهز رأسه فى حنق شديد) . آه ! أيتها المرأة السيئة المفعمة بالخيانة ! لقد سارعت بدفعى إلى حتفى حين عملت على فقدان بصيرتى وعقلى . إنى نادم على ما كان ، وليس لى أن أطمع فى أى غفران . ياحواء التعسة ! ما كان أسرعك إلى الشر حين عجلت بتصديق نصيحة التنين ! بخطيئتك أصبحت فى عداد الأموات . . . نعم ، لقد فقدت الحياة . أما خطيئتك فستسطر فى الكتاب . أترين الأشراط الدالة على الانقلاب الهائل ؟ لقد حلت بالأرض لعنتنا . بذرنا قمحاً فأنتج لنا حسكا . انظرى إلى بداية عقابنا : إنه ألم هائل بالنسبة لنا ، ولكن الألم الذى ينتظرنا أشد منه هولا . فسنساق إلى الجحيم ، واعلمى أننا هناك لن نعدم الألم ، ولا

العذاب . فماذا ترين ، ياحواء المسكينة ؟ هذا هو ربحك ، هذا هو المهر الذى قدم لك ! لن تستطيعى أبداً أن تجلبى للرجل خيراً ، بل ستكونين دائماً للعقل عدواً. وكل أولئك الذين سيخرجون من أصلابنا سيعانون جزاء جرمك . لقد أخطأت ، وسيحكم عليك هؤلاء جميعاً . أما الذى سيرد إليك اعتبارك ، فلن يأتى إلا بعد زمن طويل .

حواء : يا آدم ، أيها السيد الجميل ، لقد أطلت فى لومى ، ذكرتنى رذيلتى وعنفتنى عليها ، فإنى إذا كنت قد أذنبت ، فإنى أعانى عقاب ذنبى . إنى مدينة ، والله هو الذى سيحاسبنى . لقد أجرمت أفدح الجرم فى حق الله ، وفى حقك . وذكرى جرمى ستظل حية زمناطويلا. إن خطئى لشديد ، وإنى لأكره خطيئتى. إنى شقية ، محرومة من كل خير . وليس لى أن أطلب من الله حمايتى ، وأنا الآثمة الكبيرة . فاغفرلى ؛ لأنى لاأستطيع التكفير . ولو كان فى مقدورى أن أكفر لقدمت قربانا . آه ، أيتها الآثمة ! آه ، أيتها التعسة ! آه أيتها الضعيفة ! إن خطيئتى تملؤنى بالخوف من الله ، فخذنى ، إذن ، أيها الموت ، ولا تتركنى للحياة . ها أنذى فى خطر ، ولن أستطيع

الوصول إلى بر النجساة . إن الحية الخائنة ، إن التنين اللعون قد أغرانى بأكل تفاحة التعاسة . فقدمتهالك ، وأنا أعتقد أنى أفعل الخير ، فسقتك إلى خطيئة لاأعرف كيف أخلصك منها ! لماذا لم أطع أمر الخالق ؟ لماذا ، يامولاى ، لم أحافظ على تعاليمك ؟ لقد أخطأت يا آدم ، ولكنى أنا أصل دائناً الذى لايبدو شفاؤه قريباً . إن جريمتى ، إن مغامرتى المشئومة ستكلف أولادنا ثمناغالياً . كانت الفاكهة حلوة المذاق ، ولكن العقاب شديد اولقد أكلناها من أجل شقائنا ، ، وسيدوم عقابنا . ومع ذلك ،فإن لى أملا فى الله، وسينتهى بأن يغفرلى هذه الغلطة . سيرد الإله إلى فضله وقربه من جديد ، وسينقذنا من الجحيم بقدرته .

(يدخل الإله ومعه ثلاثة شياطين أو أربعة تحمل فى أيديها سلاسل وقيوداً فتضعها حول عنق آدم وحواء . ويأخذ البعض فى دفعهما إلى الجحيم ، والبعض الآخر فى جرهما وتقابلها شياطين أخرى ، ترقص مظهرة بذلك سرورها لخسرانهما . وحين تراها طائفة أخرى من الشياطين ، تشير إليهما بالأصابع وتلقى البعض عليهما ، وتقابهما فى الجحيم . يتصاعد دخان

كثيف مع صيحات مرح وأزيز مراجل ، وقدور تقرع فيما بينها . . وبعد لحظات تخرج الشياطين ، وتعدو في كل اتجاه من المكان ، فيما عدا بعضها التي تبقى في الجحيم)

المنظر السابع

(يدخل قابيل وهابيل . قابيل يرتدى ملابس حمراء ، أما ملابس هابيل فبيضاء . يفلحان الأرض التي تم تحضيرها . ثم يبدأ هابيل ـ الذى يأخذ لنفسه شيئاً من الراحة ـ فى توجيه الكلام إلى أخيه بصوت عذب ودود) .

هابيل : ياقابيل ، إننا أخوان ، ابنا أول رجل ، وهو آدم . وحواء اسم أمنا ، فلايصح لنا أن نسلك سلوك الأخساء فى خدمة الرب ، ولنخضع دائما للخالق ، ولنخدمه بصورة تجلب لنا حبه الذى فقده أبوانا بحمقهما ، وليحب كلانا الآخر حباً ثابتاً قوياً ، ولنتفان فى خدمة الله خدمة تجلب له السرور ، ولنؤد إليه حقه دون تحفظ ، فإذا عملنا على طاعته من كل قلبينا ، لم يكن لروحينا أن تخشيا الهلاك ، ولنؤد إليه زكاته (١)

---

(١) الكلمة « عُشرة » وهى من مصطلحات الكتاب المقدس كما أنها من مصطلحات عهد الإقطاع حيث كان يقدم عشر المحصول والماشية زكاة لله ، فيعطى للاويين لدى اليهود ، وللكنيسة ، أو للسيد الإقطاعى فى أوربا الإقطاعية .

وجميع حقوقه ، من حاصلات وقرابين وعطايا وضحايا ، فإننا إذا استسلمنا لإغراء منعها ، كان جزاؤنا الخسران فى الجحيم دون رجعة ، ولتكن علاقة ما بيننا قائمة على التعاطف العظيم دون حسد ودون انتقاص ، فلماذا يثور الخلاف بيننا ، وهذه الأرض كلها فى متناول أيدينا ؟

قابيل : (ناظرا إليه بسيما السخرية) أخى الجميل هابيل . إنك تعرف كيف تجيد الوعظ، وتروض عقلك، وتعرض ثمرات فكرك ، ولكن من يصغى إلى دروسك لا يبقى لديه ـ بعد بضعة أيام ـ إلا القليل مما يستطيع إعطاءه ، وأنا لم أرحب قط بإيتاء الزكاة ، وفى وسعك أن تجزل عطاءك من ملكك الخاص . أما مالى فإنى سأفعل به ما يحلو لى ، ولن تحل بك اللعنة من أجل خطيئة ارتكبها أنا . وإذا كانت الطبيعة تعلمنا أن يحب كل منا صاحبه ، فليرتفع من بيننا كل رياء ؛ فعلى من يبدأ منا بإعلان الحرب على أخيه أن يتحمل تبعة عمله ، ولا يلومن إلا نفسه ،

هابيل : (بصوت أكثر عذوبة) قابيل ، يا أخى الجميل ، اصغ إلى ،

قابيل : بكل سرور ، فماذا تريد ؟

هابيل : أريد خيرك .

قابيل : لحسن الحظ .

هابيل : لا تثر أبداً ضد الرب ، ولا تصعر خـــدك غروراً ، صدق ما أقول .

قابيل : لست إلا راغبا فى ذلك ،

هابيل : اتبع نصيحتى ، ولتحمل إلى الإله الرب قربانا يروقه ؛ فإننا إذا أرضيناه ، لم تنقض علينا الخطيئة أبدا ، ولم يستول علينا الحزن مطلقا ؛ إذ من الخير أن نسعى إلى اكتساب حبه ، هيا ، ولنقدم على مذبحه قربانا نرجو أن يجذب انتباهه ، ولنتوسل إليه أن يمنحنا حبه ، وأن يحمينا بالليل والنهار !

قابيل : (وكأنه استحسن نصيحة هابيل) أخى الجميل هابيل ، لقد تكلمت فأحسنت الكلام ، وصغت موعظتك فى خير أسلوب، وسأتبعها . هيا نقدم قرباننا ، فإنك على حق . ماذا ستقدم ؟

هابيل : سأقدم حملا ، خير ما فى منزلى من حملان وأجملها . هـذا ماسأقدمه ،وليس شيئا آخر ، ولـكنى سأضيف إليه البخور. ذلك ما أستقر عليه عزمى . وأنت ، ماذا ستقدم ؟

قابيل : سأقدم بعض قمحى ، كما وهبنى الله إياه .

هابيل : من خير ما لديك .

قابيل : كلا ، فى الحقيقة . إن خير ما الذى ساصنع منه خبزا هذا المساء .

هابيل : هذا قربان غير مقبول .

قابيل : ماذاتقول ؟ لعلك تمزح .

هابيل : أنت رجل غنى ، ولديك ماشية كثيرة .

قابيل : نعم .

هابيل : ألا تعدها بالراس ،وتؤتى عنها الزكاة ؟ إنك ستقدمها إلى الرب نفسه ، فقدمها عن طيب خاطر تنل منه خير الجزاء. أهذا ماستفعل ؟

قابيل : كلا ، وألف كلا ، أيها الأخ الجميل ؛ يالها من حماقة ! أتريد ألا يبقى لدى من كل عشر مواش أملـكها غير تسع ؟ إن نصيحتك هذه لا تساوى شيئا . هيا ، وليقدم

كل منا مايريد .

هابيل : هذا ما أوافق عليه .

قابيل : يذهبان نحو حجرين كبيرين جهزا من قبل لهذا الغرض ، ووضعا متباعدين بعض الشيء أحدهما عن الآخر بحيث إذا ظهر الرب كان حجر هابيل عن يمينه وحجر قابيل عن يساره . هابيل يقدم حملا ، وبعض البخور الذي يتصاعد دخانه نحو السماء . ويقدم قابيل حزمة قمح . وعلى أثر ذلك يظهر الرب ، ويبارك قرابين هابيل ويرد قرابين قابيل . بعد التقديم يلقي قابيل نظرة وعيد على هابيل ، ثم يذهب كل منهما الى حال سبيله (١)

قابيل : (وقد عاد نحو هابيل ، وأخذ يحاول استدراجه إلى الخارج لكي يقتله) هيا نخرج

هابيل : لماذا .

قابيل : لكي نريح جسمينا، ونرعى عملنا ، ونرى ما إذا كان قمحنا قد نما وغطاه النور . وسنرجع بعد ذلك ، حيث نكون أكثر نشاطا

هابيل : سأذهب معك حيثما أردت .

قابيل : هيا إذن ، فهذا خير ما تفعل

هابيل : أنت أخي الأكبر ، وسأفعل كل ما تأمر به .

قابيل : تقدم أمامي ، وسأتبعك على مهل وبخطى بطيئة .

(يذهبان إلى مكان منعزل ، ويكاد أن يكون مختبئا ، حيث ينقض قابيل كالمجنون على هابيل لكي يقتله)

---

(١) انظر قصة هابيل وقابيل في سفر التكوين من الكتاب المقدس .

قابيل : إنك ميت ياهابيل .

هابيل : أنا ؟ لماذا

قابيل : أريد أن أنتقم منك

هابيل : هل ترى أنى ارتكبت جرما ؟

قابيل : نعم ، أنت خائن ، وهذا ما قام عليه الدليل .

هابيل : كلا ، بكل تأكيد .

قابيل : أتنكر ذلك

هابيل : أنا لم أمل إلى الخيانة قط .

قابيل : ولكنك ارتكبتها ؟

هابيل : أنا ؟ كيف ذلك ؟

قابيل : ستعرف بعد قليل .

هابيل : لست أفهم شيئا .

قابيل : سافهمك بعد قليل

هابيل : الحقيقة أنك لن تستطيع مطلقا أن تقدم الدليل على ذلك .

قابيل : ليس الدليل ببعيد .

هابيل : الله فى عونى

قابيل : سأقتلك

هابيل : الله مطاع

قابيل : (مهددا إياه برفع يده) : هذا هو الدليل .

هابيل : إن اعتمادى كله على الله .

قابيل : إنه لن يجيرك منى .

هابيل : فى مقدوره أن يخجلك .

قابيل : لن يستطيع أن يجنبك الموت .

هابيل : ليس لى إلا أن أستسلم لقضائه فى كل أمر .

قابيل : سأخبرك بالحقيقة . إنك أصبحت وثيق الصلة بالرب الذى رفض لى كل شىء من أجلك ، و بسببك رد قربانى . أتظن أنى لن أحملك على دفع الثمن ؟سأقابلك بما أنت جدير به . سأتركك على هذه الأرض مجندلا .

هابيل : إنك إن قتلتنى ارتكبت إثما ، ولا بد أن ينتقم الله منك لموتى ، الله يعلم أنى لم أعمل شرا ، ولم أفسد ما بينك و بينه ، بل لقد نصحتك ـ على العكس من ذلك ـ بأن تسير على المنهج الذى يليق بسلامه ، فقدم له الحمد الواجب له ، وقدم له الزكاة والبواكير والقرابين ، و بذلك تكسب حبه و إذا لم تفعل ذلك ، حل بك غضبه. إن الرب حق ، وهو يحسن معاملة من يخدمه ، ولا يقضى عليه بالهلاك .

قابيل : أنت كثير الكلام ، وستموت من فورك .

هابيل : ماذا تقول ، ياأخى ؟ أتهددنى ؟ لقد جئت هنا إلى الخارج ثقة فى وعدك .

قابيل : لم تعد فى حاجة إلى ثقة ، فسأقتلك ، وهذا ما يجب أن تتأكد منه .

هابيل : أدعو الله أن يشملنى برحمته .

هابيل يجثو على ركبتيه متجها نحو المشرق (ويجب أن يضع الممثل تحت ملابسه قربة مختفية ، فيضربها قابيل كما لو كان يقتل هابيل نفسه .

يبقى هابيل ممددا على الأرض وقد فقد الحياة . الجوقة تغنى الآية : أين هابيل أخوك ؟

المنظر الثامن

(فى هذه الأثناء يقبل الرب من الكنيسة نحو قابيل ، وبعد انتهاء الإنشاد يخاطبه في غضب)

الرمز : قابيل أين أخوك هابيل ؟ هل بدأت الثورة ؟ إنك قد اشتبكت معى فى خصام ، والآن أرنى أخاك حياً .

قابيل : أأعرف أنا ، يامولاى ، أين ذهب ؟ وما إذا كان فى البيت أم فى حقل القمح ؟ لماذا يتحتم على أن أعثر عليه ؟ إنى لم التزم بحراسته .

الرمز : ماذا فعلت به ؟ أين وضعته ؟ إنى أعرف ذلك جيداً ، أعرف أنك قتلته . فقد صاح دمه يخبرنى بذلك ، وصعدت إلى روحه فى السماء . لقد ارتكبت جريمة منكرة ، وستظل ملعونا طول حياتك ، لن تفارقك اللعنة مطلقاً . هذه هى الجريمة ، وهذا هو العقاب . لا أريد أن يقوم إنسان بقتلك ، بل أريد أن تقضى حياتك فى العذاب ، و إذا أقدم أحد على قتل قابيل

أنتقمت لقابيل سبع مرات . إنك قتلت أخاك الذى وضع ثقته فيك ؛ وسيكون عقابك شديداً .

(ثم يتجه الرب نحو الكنيسة . تقبل الشياطين وتقود قابيل الى الجحيم بقسوة ، وهى تنهال بالضربات الشديدة على رأسه وكتفيه ، كما أنها تحمل هابيل أيضا ، ولكن بلطف)

وفى هذه الأثناء يظل الأنبياء مختبئين على استعداد للظهور متتابعين ؟ ويتقدم كل نبى فى جلال بعد أن ينادى اسمه ، ويتلو نبوءته بصوت واضح متميز النبرات . وبعد أن ينتهى كل نبى ، يقوده الشيطان الى الجحيم)

نبوءة أشعيا

ومن بعده (يأتى أرميا) يأتى إشعيا ممسكا بيده كتاباً ، ومرتديا عباءة فضفاضة ، ثم يتلو نبوءته .

« سيخرج من جذع يسى قضيب ، وتنبت من جذعه زهرة تحمل عليها روح الرب » (١)

إشعيا : سأقول لكم قولا عجيباً : (٢)

---

(١) بعد أن يعلن اشعيا نبوءته هذه باللاتينية يعلق عليها بالفرنسية على هذا النحو المذكور .

(٢) هذا النص حتى آخر التمثيلية مكتوب فى الأصل بالإنجليزية النورمندية . المترجم .

سيخرج من جذع يسى
غصن تخرج منه زهرة ،
تصبح جديرة بشرف عظيم ،
سيوليها روح القدس عنايته ،
وعليها سيتخذ راحته .

(وحينئذ يصعد رجل من المعبد ليجادل إشعيا ، ويقول له :)

يهوذا : هذا هو جوابى ، ياسيد إشعيا :
أهى خرافة أم نبوءة
تلك التى تفوهت بها هنا ؟
أ أنت الذى وجدتها أم هى مكتوبة ؟
أ أنت نمت وحلمت بها ،
أهى يقين أم مزاح ؟

إشعيا : إنها ليست خرافة ، بل كلها حقيقية .

يهوذا : إذن ، فأرنا حقيقتها .

إشعيا : إن ما قيل ليس إلا نبوءة .

يهوذا : أهى مكتوبة فى كتاب ؟

إشعيا : نعم فى [كتاب] الحياة .
إنها ليست حلما ، بل رؤيا .

يهوذا : وكيف رأيتها؟

إشعيا : بحق الله .

يهوذا : يبدو لى أنك هرم مخرف ،

ولقد أصبحت مضطرب العقل قبل الأوان ،

هذه هى الحال التى يبدو لى أنك صرت إليها .

أتعرف جيداً كيف تنظر فى المرآة ؟

إذن فانظر فى يدى هذه ،

(وحينئذ يمد أمامه يده)

اترى ما إذا كان قلبى مريضاً أم سليما .

إشعيا : إن فيك داء الخيانة

الذى لن تبرأ منه طول حياتك .

يهوذا : أ أنا مريض ؟

إشعيا : نعم ، بالضلال .

يهوذا : متى أبرأ منه ؟

إشعيا : لن تبرأ منه فى أى يوم ، على وجه التأكيد .

يهوذا : إذن ، استأنف نبوءتك .

إشعيا : إن ما أقوله ليس هراء .

يهوذا : إذن ، أعد علينا الكلام عن رؤياك ،
وما إذا كان ذلك غصنا أم عصاة ،
وعما سينتج عن زهرته .
وحينئذ سنعتبرك أستاذاً ،
وهذا الجيل
سينصت إلى درسك

إشعيا : إذن ، أنصت إلى العجيبة الكبرى
التي لم تسمع بمثلها أذن قط ،
تلك التي لم يسمع بمثلها – مجرد سماع –
منذ وجد هذا العالم .
ها هي ذي العذراء تحمل ، وتلد ابنا ، وتسميه عمانوئيل[1] .
إنه قريب ، وليس بعيدا ،
لن يتأخر وقوعه ، بل هو بين يدينا ،
ذلك أن العذراء ستحمل ،
وستلد العذراء ولدا

---

(١) سفر إشعيا ٨ ، ١٤ . والأبيات التالية ترجمة أنجلو نورمندية ، وشرح النبوءة . المترجم .

يسمى عما نوئيل ،

ويـكون رسوله القديس جبرائيل .

العذراء هي العذراء مريم ،

إنها ستحمل ثمرة الحياة ،

عيسى مخلصنا

الذى سيخلص آدم من العذاب،

ويعيده إلى الجنة :

وهذا الذى أقوله لـكم قد جاء من عند الله .

إنه حقيقة مقررة ،

وذلك ما لابد أن يحيي الأمل .

معجزة المرأة

التي نجتها السيدة العذراء من الحريق

هذه المعجزة إحدى معجزات السيدة العذراء التي نجدها في مخطوطة رائعة مزينة بالمنمنمات محفوظة بالمكتبة الأهلية ، وهي مخطوطة « كانجيه ٨١٩ ، ٨٢٠[١] » من القسم الفرنسي ، ويبدو أن تاريخها يرجع إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وأنها تكون القائمة Réperloire الدرامية لإحدى الجمعيات البارسية ، وتجمع هذه المعجزات بين نوع من الصوفية لا يخلو من السذاجة في غالب الأحيان ـ وإن كان مؤثرا في بعض الأحيان ـ وبين نوع من التصوير لعادات العصر لا يخلو من لذة ، وموضوعاتها جد متنوعة ، ولكنها جميعا تحث على التفاني في تمجيد العذراء . أما مؤلفوها فمجهولون .

اللوحة الأولى

غليوم[٢] : أريد ، ياجيبور ، أن أخبرك بعزمي : سأذهب إلى الحقل

(١) Ms. Congé 819 et. 820

(٢) غليوم وجيبور اسمان من أسماء شخصيات الملاحم ،وقد استعارهما المؤلف المجهول من انشودة غليوم الحماسية .

دون إبطاء لكى أتفقد حاصلاتى؛ ولكى أضمن ـ باعتبارى رجلا بعيد النظر ـ وجود عمال الحصاد : فإنى أعرف أنه قد آن أوانه ، ولم يعد من الممكن أن ننتظر[1] .

جيبور : كما تريد ، ياسيدى . فلست أريد أن أعارضك فى شىء ، وأنا واثقة من أنك سديد الرأى ؛ ولا يسعنى إلا الموافقة على رأيك .

الابنة : آه ! أرجو أن توافق، يا أبى العزيز ،على أن أذهب معك؛ ففى ذلك لى بعض التسلية ، وقد مر على وقت طويل لم أخرج فيه من هنا ، وليس فى الإمكان أن أجد لى صحبة خيرا من صحبتك .

غليوم : تعالى ، إذن ، يا ابنتى ما دام ذلك يسرك .

الابنة : هيا ، ياسيدى ، إنى جاهزة . وداعا ، ياأمى .

جيبور : احذرا أن تسيرا فى مكان طرقه غير مضمونة .

(يخرج جيوم وابنته . جيبور تخاطب زوج ابنتها) .

أنه ليسر زوجتك ـ يا أوبان ـ أن تذهب مع أبيها . وأنا

---

(١) الشخصيات فى النص الأصلى الذى نقل عنه مؤلف الكتاب المترجم تعبر عن نفسها بنوع من النظم ذى تقفيه ووزن خاصين به .

ذاهبة إلى الكنيسة ، يامهرى . ألا تريد أن تصحبنى إليها ؟

أوبان : لو رفضت لك ذلك ، لاعتبرت نفسى غير حكيم . هيا ، ياسيدتى : إنه ليسرنى أن أعمل وفق إرادتك .

جيبور : هيا . فلا شك أنى سأكون جد مسرورة ، إذا استطعت الحصول على مكان قريب من الواعظ ، وبعيد عن الضوضاء . هيابنا !

اللوحة الثانية

الجار الأول : هيه ! انظر ، ياجوتييه ! ألا ترى أن زوجة العمدة تصحب زوج ابنتها ؟ لقد أكد لى بعضهم أنهما اصبحا شخصا واحـــــدا .

الجار الثانى : يشاع فى المدينة أنه يعاملها كما لو كانت زوجته ، وهذا ـ فى رأيى ـ عار كبير بالنسبة لكل منهما .

الجار الأول : هذا حق ، ولكنهما لن يتخليا عن هذه الصلة ، مهما قلنا ، فهيا بنا نحضر قارورة النبيذ التى قررنا شربها معا .

هذا خير ما فى وسعنا أن نفعله : ما رأيك فى ذلك ؟ ألست على صواب ؟

الجار الثانى : لن أرفض : هيا ، ياروبير (يخرجان) .

جيبور : أريد أن أركع هنا . فإذا لم ترد أن تنتظر ، وفضلت أن تذهب للتسلية فى المدينة ، فإنى لن أمنعك .

أوبان : نعم ، أريد ذلك بكل سرور ، فلم أتعود البقاء فى الكنيسة كل هذا الوقت من أجل الصلاة لله ، أو الإصغاء إلى الوعظ (يخرج)[1] .

جيبور : (تدعو) : ياسيدة السماوات العلى ، ما أتعس شخصا لا ينقطع لخدمتك . ولكن ما أسعد طالع الشخص الذى يهبك قلبه وتفكيره ! ذلك لأنه لا ينخرط أحد فى سبيل الشر إلا وتأتين لنجدته ، حتى أنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد تخلص من آلامه منذ اللحظة التى ينقطع لك فيها . أنت يامن فى السماء حقيقة بجوار الجوهر الإلهى ، ومن الـ

---

(١) تقدم لنا المخطوطة نص الموعظة نثرا ، والحقيقة أنه يتسم بشىء من الحذلقة ويدور كله حول تمجيد العذراء .

السيادة والسلطان على جميع القديسين ، أرجوك ياعذراء ، باطفك السامى ، أن تكونى لى ملجأ ، وأتوسل إليك فى ذلك بكل قلبى . وقبل موتى طهرى روحى ، حتى إذا ما حان انفصالها عن هذا الجسد استطاعت أن تتجنب ليل الجحيم ، وأن تكسب تراث السماوات الذى أهفو إليه بكل ما فى من قوة .

اللوحة الثالثة

امرأة : سيدتى العرابة ، أرجو الله أن يمنحك يوما طيبا .

جيبور . سيدى العراب الجليل ، نرجوه أن يغفر لنا ذنوبنا ! كيف حال عرابتى ؟ أرجو أن تكون على مايرام .

العراب : نعم ، الحمد لله ! وأنت ، ياسيدتى العرابة ؟

جيبور : بخير . وإنى أحمد الله ، ياعراب ، لأنه أكرمنا ، فجعلنا نختار لابنتنا زوجا لطيفا كهذا الزوج . أعتقد أنه لم يكن فى مقدورها أن تجد خيرا منه .

العراب : ياسيدتى العرابة ، يؤلمنى أشد الألم أن أسمع الناس ينهالون باللوم والتجريح على شخص يحتم على حبى إياه أن أدافع

عنه بكل قواى ، وأن أحذره من أجل المحافظة على شرفه .

جيبور . لماذا تتكلم هذه اللغة ؟ قل لى ، ياعراب .

العراب : سأشرح لك ذلك ، ياعرابتى . يروج الناس فى كل مكان من هذه المدينة إشاعات شريرة حولك وحول صهرك ، ويدعون أنك تكنين له نوعا من الجنان الآثم ، وأنكما تكونان معا شخصا واحدا ؛ هذا ما يقال فى كل مكان، كما يدعى بأنه لا يبدو على هذا النحو من اللطف إلا لأنه محبوب من الأم والإبنة على السواء .

جيبور : واأسفاه! أتروج عنى فى المدينة مثل هذه الشائعات؟ أقسم لك بما لك عندى من مقام ـ ياسيدى العراب ـ بأن هذه كلها إشاعات زائفة . لاأدرى من الذى روج كل ذلك ، ولكن لاشك أنه ارتكب خطيئة عظمى . لاقدر الله لى أن أوصم بارتكاب مثل هذا العمل !

العراب : سيدتى العرابة ، إنى أحذرك بحسن نية ، والله على ماأقول شهيد . فلا تمدحينى ، ولا تلومينى ، ياعرابتى الجليلة !

جيبور : إنى أشكرك على ذلك ، ياسيدى العراب ، وأرجوك ،

إذا سمعت هذه الشائعات مرة أخرى ، أن تكذبها بكل قواك

العراب : أنا واثق من براءتك كل الثقة ؛ والآن أدعو الله أن يحيطك بحمايته ! وإلى اللقاء .

جيبور : بارك الله لك في يومك ، ياسيدى العراب ! شكرا لك . (تنق و...) ماهذا ، ياأم الإله الحبيبة ؟ ماذا جرى للناس حتى يظنوا بي هذا الظن دون سبب ودون علة؟ أقسم أن هذه خيانة عظمى . ماذا في مقدوري أن أفعل ؟ إنى أتألم وأبكى وأنتحب . ماذا أفعل ، ياأم الإله الحبيبة ؟ لن يهدأ لى بال حتى أجد الوسيلة التي أمحو بها تلك الشائعة التي روجوها ضدى .

اللوحة الرابعة

الحصاد الأول : زميلي وصديقي سلفستر، هيا بنا إلى الميدان ؛ ترى ماإذا كنا نجد سيدا . إننا لانملك مليما ، ولا يصح أن نغادر هذه المدينة دون أن نربح بعض المال .

الحصاد الثاني : هذا رأى صائب ، ياممدو ، هيابنا . إني مستعد ، وهاهو منجلي ، فخذ منجلك ، أنت أيضا . ولننطلق ! سر إلى الميدان ، باشرة .

الحصاد الأول : هاأنذا أذهب ، اتبعني . إن الصباح لايزال مبكرا ، ياسلفستر ، انظر ، ليس في الطريق سوانا .

الحصاد الثاني : لاضرر من ذلك ، ياممدو : نخير المرء أن يكون الأول من أن يكون الأخير . وإذا شاء الله ، فإننا لن نلبث أن نعثر على شخص ما يمكننا من ربح بعض المال .

جيبور : (داخله) : لن يعرف قلبي معنى السرور حتى أمحو هذا العار الذى لحق بشرفى. ولكنى لاأعرف كيف أصل إلى ذلك ، إلا أن يكون بموت صهرى . لاشك أنه يجب على أن أعمل على ذلك . لافائدة لمالى إذا أنا لم أبذل منه لأحد الغرباء مايكفي لإقناعه بقتله بيديه . والواقع أن هذه هى اللحظة المواتية ؛ لأن هناك كثيرا من العمال الغرباء الذين أقبلوا من كل مكان يبحثون عن رزقهم في عرض الطريق . يجب على المرء أن يختار أخف الضررين . سأذهب من فورى إلى الميدان لأرى ماإذا كنت أجد أحداً أكلمه في

هذه المسألة . نعم أنى أرى هنالك عملاقين تبدو عليهما
القوة والجرأة والاستعداد لإرتكاب أى منكر . أيها
السادة ، أجئتما هنا من أجل العمل ؟

الحصاد الأول : نعم ، ياسيدتى ، أأنت فى حاجة إلينا ؟

جيبور : ربما ، من أين اقبلتما ؟ قولا لى .

الحصاد الأول : إننا من كيروتوا[1] ، ونعرف كيف نحصد القمح وندرسه . فإذا كانت لديكم حقول تحتاج إلى حصاد ، فإنه يسرنا أن نعقد معكم صفقة ، وسيتم العمل بسرعة وإتقان ، ياسيدتى .

جيبور : أيها السادة الأجلاء ، إننى امرأة تستطيعان معها أن تربحا كثيرا دون مساومة ، إذا أردتما .

الحصاد الثانى : بشرفى ، ياسيدتى ، إن ذلك يسرنا كثيرا ، فماذا تريدين عمله ؟

جيبور : أريد منكم - قبل أن أكلمكم فى مسألتى - أن تقسما لى على المخلفات المقدسة بأنكما لن تفشيا كلامى لرجل أو امرأة ، و بعد ذلك سأشرح لكما قصدى .

---

(١) قرية على الشاطىء الشمالى لخليج السوم .

الحصادالثانى : أما من جهتى فإنى أبادر ، ياسيدتى ، بأن أقسم لك بأنه لن يطلع أحد على سرك دون إذنك .

الحصادالأول : وأنا أيضا ، ياسيدتى ، أؤكد لك أنه لن يعرف منى أحد شيئا . فكلمينا ـ إذن ـ عما تريدين ، وأنت مطمئنة .

جيبور : هذه هى رغبتى ، أيها السادة : أريد منكما معا أن تقتلالى رجلا ، بالرغم من أنه من أصدقائى . خذا من مالى ما تشاءان ، فإنى موافقة على ذلك . فقد تلوث شرفى بسببه ، هذا ماتجرى به الإشاعات ، وإن قلبى ليشعر من جراء ذلك بالحزن والكآبة إلى الحد الذى يعجز لسانى عن وصفه .

الحصادالثانى : سيدتى ، سيدتى ، سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن صواب ، فإنى أنا وزميلى ... أسلميه إلينا ، أسلميه ، وسيتم كل شيء تبعا للقواعد ، ودون أن يستطيع الإفلات منه .

الحصادالأول : نعم . ولكن يلزمنا الوقت الذى يمكننا من إنجاز هذا العمل دون أن يرانا أحد .

جيبور : سأخبركما فورا بالطريقة . سأضعكما فى مخزن مؤنى ، وأرتب أمرى على أن أرسله لإحضار بعض النبيذ ، فإذا أمسكتما

به ، فاقتلاه دون إحداث جرح أو إسالة دم من البطن او
الرأس أو الجانبين ، بل اخنقاه .

الحصاد الثانى : سيتم ذلك فورا : ضعينا إذن فى مخزن مؤنـــــك
وتكفلى بالباقى .

جيبور : بكل سرور ، ياسادة . والآن هيا أمامى ! تعاليا معى ،
وأقسم لكما أنى سأدفع لكما أكثر من الكفاية .
ادخلا هنا ، ولن أتناول طعامى إلا بعد إرسالكما إليكما
، عشيها ، الآن أصبحت مسألتى فى طريقها إلى الانتهاء .
فى وسعه الآن أن يحضر ، فليس معى فى البيت أى كائن
حى ؛ لأن زوجته فى الخارج ، أما هو ، فلن يلبث أن يحضر ،
فليحدث ما يحدث ، إنى منتظرة هنا .

اللوحة الخامسة

أونان : لن أبقى فى هذا المكان أكثر من ذلك . فإن ساعة
الإفطار قد اقتربت . سأذهب لكى آكل نصيبى من هذا
الديك الذى رأيته يوضع فى السفود منذ قليل . فمن الخير

لى أن أكون هناك قبل الأوان لا بعد الأوان ؛
هذا أحسن .

جيبور : يجب أن أدعى المرض : فإنى أرى صهرى قادما . سأجلس معاقة الرأس ، مغمضة العينين .

أوبان : ماذا بك ، ياسيدتى ؟ أسبغ الله عليك صحة الجسم والروح! هيا ! ألست فى حالة حسنة ، ياسيدتى ؟ قولى لى .

جيبور : أعتقد أن جسمى كله يرتعد ، وأنى أعانى حمى شديدة . وقد استبد بى العطش حتى كاد يقتلنى ، ياصهرى أوبان . فأرجوك أن تأخذ إناء نبيذ ، وأن تملأه من المخزن . أسرع حتى أبل غلتى .

أوبان : سأفعل بكل سرور ، ياسيدتى ، بالرغم من أن ذلك مضر بك ، ومع ذلك فسأحضره لك ، ما دامت هذه رغبتك .

جيبور : عجل بالذهاب (يخرج) لقد انتهى الأمر : سأتخلص منه فورا . والآن يجب أن أفكر فيما يجب أن أفعل بعد ذلك .

الحصاد الأول : لاتقاقى نفسك بعد الآن ياسيدتى . لقد انتهى

كل شيء .

جيبور : أقتلتماه ، ياسادة ؟ بأى طريقة ؟

الحصاد الثاني : لم يكن لنا أن نختار فى ذلك ياسيدتي : لقد ضغطنا على عنقه بصورة جعلتنا نتحقق من موته .

جيبور : هذا حسن ، ياسادة ، يكفيني ذلك ، هيا بكل سرعة : يجب أن تحضراه هنا ، وسننزع عنه ملابسه ونضعه فى سريره و بعد ذلك سأعطيكما نقودكما ، وأدعكما تذهبان إلى حيث يشاء الله .

الحصاد الثانى : إننا تحت أمرك : وسنفعل ما تريدين بكل سرعة .

الحصاد الأول : أرينا ، ياسيدتى ــ دون إبطاء ــ أين تريدين أن نضعه ، أرجوك أن تعجلى قبل أن يقدم علينا أحد .

جيبور : من أجل أن يتم كل شيء بسرعة ، أرقداه على هذا السرير ، أيها السادة ، وكأنه ينام ليأخذ لنفسه قسطا من الراحة . حسن جدا . إنه هكذا كما كنت أريد . خذا ، ولا تبطئا فى الرحيل ؛ حتى لا يراكما أحد .

الحصاد الثانى : لن يمكن الإمساك بى ما دمت على قدمى .

الحصاد الأول : ولا أنا ، كوني واثقة من ذلك . ومادمنا قد حصلنا على النقود التي ننفقها ، فلنرحل دون إبطاء ، ياسيدى سلفستر

(يخرجان)

غليوم : سيدتى ، لقد جئنا مبكرين أكثر مما كنا نظن ، أحضرى الخبز والنبيذ والمفرش . أريد أن أنزع هذا المعطف الذى يشبه العباءة . إنه لا يصلح إلا للشتاء . لقد استبد بى الجوع ، وأريد أن آكل ، هيا ، أحضرى النبيذ بسرعة : وأنت يا ابنتي ، اذهبي فى هذه الأثناء لاستدعاء أوبان : وبعد ذلك سنتغدى سويا . وأظن أننا سنقوم بالحصاد غدا ، وبعد فسأبدأ بالبحث عن بعض الرجال ؛ ولذلك لا أريد أن أبقى وقتا طويلا ، الآن على الأقل .

جيبور : مارى ! أوبان لا يزال فى سريره .

غليوم : لقد تأخر فى النوم . اذهبي لاستدعائه ، اذهبي ، يامجنونة قولى له أن ينهض .

اللوحة السادسة

الإبنة : أوبان أوبان ! إذا كان ذلك لا يضايقك ، استيقظ لتقول لى

إذا كان النهار قد طلع أم لا . ألم تنم اليوم نوما كافياً، ياسيدى العزيز ؟ ما هذا ! إنه لا يجيبنى . سأقترب منه لأعرف ما إذا كان مستيقظا أم لا، ما إذا كان نائما حقيقة أم مستيقظا. (تكشف عنه الغطاء) هيا ! قم ، ياسيدى ، قم ، دون إبطاء ! أتراك ستقضى النهار كله فى النوم؟ ما هذا ؟ آه ياأمى ! ياأمى ! هذا خبر فى غاية السوء . لا بد لى أن أئن، وأن أبكى بأعلى صوتى كمن يتأوها اليأس ، لقد ضعت .

اللوحة السابعة

جيبور : ماذا يبكيك على هذا النحو المفجع ؟

الابنة : لا أستطيع إلا أن أبكى : فقد ولت لحظاتى الحلوة ، وأيامى السعيدة ، لقد مات أوبان . يا للحسرة ! يا للحسرة ! ماذا أفعل ! لا شك أنى سأموت هما عليه ، آه ! يا أوبان الخئون ! لقد انتهى قراننا أسوأ نهاية ، و بأسرع وقت !

غليوم : إنه لألم قاس، ونكبة مروعة ؛ كنت أفضل أن أفقد جميع ما أملك . أحقا ، يا ابنتى ، ما أسمعه منك ؟

الابنة : بل لقد أصبح لونه فى صفار الشمع . ألا تصدقنى يا أبى ؟
واحسرتاه ! عروس دون عريس ! ها أنذى ، بائسة مهجورة .

جيبور : آه ، يا ابنتى العزيزة ! يالها من خسارة ! لاشك أنه يجب على
أن ألوى يدى ، وأحث عينى على البكاء ، ما دمت قد فقدت
أوبان الحبيب الذى كان يحترمنى ، ويحبنى من كل قلبه .

الابنة : وا أسفاه ، يا أمى ! لم يكن يدعونى إلا بصديقته وأخته ، لذلك
يحق لى أن أشعر بالحزن فى أعماق قلبى .

الجار الأول : كان الله فى عونكم ! ماذا يجعلكم تصيحون على هذا النحو
وتنتحبون ؟ أحدث لديكم ما يحملكم على هذا الحزن
الشديد ؟

غايوم : نعم ، يا روبير ، يا جارى العزيز : لقد مات أوبان .

الجار الأول : آه ! رحمه الله رحمة واسعة ! أؤكد لك ، يا جارى غايوم ،
أن هذا الخبر أحزننى . وأقسم لك بعذراء بونتواز أننى
أود لو أستطيع فداءه . ومع ذلك دعنى أسألك : ما فائدة كل
هذا الحزن ؟ لا شىء ، بكل تأكيد . نعم أنا أعرف
جيدا أنه فى هذه الحال يجب أن نترك الأمر للطبيعة ،
ولكنك تفعل خيرا إذا قللت من ألمك بعض الشىء .

الابنة : كيف يمكن ذلك ؟ إنى أزعم ، يا روبير ، أن الله كان قد

أعطاني أرق الرجال الذين رأتهم هذه الأرض ، وأرجحهم عقلا ، وأصدقهم حبا ، وأحلاهم طبعا ، وأوسعهم أفقا ؛ لذلك ألا ترى من الطبيعي أن يستولى كل هذا الحزن على قلبي ؟

جيبور : نعم ، هذا حق ، ليست هناك امرأة في الإقليم كله قد لاقت ما لاقيت أنت من توفيق في الزواج ؛ ولكن هذه هي الحال ، لقد مات . فليتغمده الله برحمته !!

الجار الأول : أنصتوا ! إذا احتجتم إلى في أى أمر ، فاطلبوه منى ، ولا تتحرجوا ، فسأفعله .

غليوم : إذن أرجوك ، ياروبير ، أن تحضر لى عشا : وأعدك بأنى سأرد لك هذا الجميل نفسه في فرصة أخرى .

الجار الأول : سأعجل بإحضاره إليك ، بأية طريقة .

اللوحة الثامنة

الجار الثانى : أسبغ الله عليك ثوب العافية ، ياروبير ، إلى أين أنت ذاهب ؟

الجار الأول : أريد أن أحضر نعشا ، ياصديق جوتييه .

الجار الثانى : نعشا ! لمن ؟ أهذه مجرد فكرة ؟ قل لى ، أيها الجار .

الجار الأول : كلا ، ياجوتييه ، إنه لأوبان ، صهر العمدة .

الجار الثانى : أوبان ! رحمه الله ورفق بروحه !

الشرطى الأول : نزهك الله عن الملام ، ياجوتييه ، من الذى يقول إنه مات ؟ إنى لم أسمع جيداً .

الشرطى الثانى : أوبان ، ذلك الذى كان صهر غايوم ، عمدة شيفى [1] ، لقد رأيته هذا الصباح سليما قويا .

الشرطى الأول: ليرفق الله بروحه .فلاشك أن هذه خسارة كبيرة ، لأنه كان شابا جميلا ، حكيما ، فصيحا .

الجار الأول : كلنا سنمر بهذا الطريق ، وداعا ، يا أصدقاء .

الشرطى الأول: وداعا ياجوتييه ، أحسن الله يومك ، وأسعد شهرك ، أما أنا فسأذهب إلى الجلسة دون إبطاء ، لأن الوقت قد حان .

---

(١) هناك قريتان باسم شيفى فى مقاطعة الإين

اللوحة التاسعة

القاضي : من أين أتيت ، حفظك الله ، هل جد أمر من الأمور لأحد الأشخاص ؟ ماذا يقال فى المدينة ؟ أجب .

الشرطى الأول: يدعى كثير من الناس موت أو بان ، ذلك الشاب الفوى الجميل ؛ لقد حدث ذلك . منذ لحظة .

القاضى : ماذا تقول بحق ملك السماء ؟ أمات أو بان !

الشرطى الأول: هذا مايقوله الجيران ، ولا حديث للناس إلا ذلك .

القاضى : هذا يدهشنى : وإنى أتساءل كيف يمكن أن يموت احاس ، اجاس . أعتقد أنه لابد أن يكون أحد مافد حرجه لكى يموت على هــــذا النحو المفاجىء . ذلك مالا شك فيه .

اللوحة العاشرة

الجار الأول : دعه على الأرض بكل رفق ، ياصديقى ، من فضلك ، حتى لايتلف ، وأرجوكم ، أيها الجيران ، أن يقوم اثنان منكم

بوضع الجثمان فيه . على الظهر ، على الظهر ، يا أصدقائى المخلصين ، لا على الوجه .

الحمال : لا تقلق ، فإنه سيوضع خير وضع ، ياسيدى ، احمله من تلك الناحية ، وسأحمله أنا من هذه . هيــا ! ضعه .

الجار الأول : انتهى الامر . ليلطف عيسى بروحه ، ويترفق بها !

الحمال : من منكم سيدفع لى أجر النقل ؟

جيبور : أنا ، ياصديقى ، بكل ارتياح ، ولن نحتاج إلى نقاش ، حل من أجله . خذ . واذهب لعملك ، هاك ثلاثة من البيض [1] .

الحمال : أتوسل إلى عيسى المسيح ، الملك القادر ، أن يمنح روحه الغفران الأبدى ! لو لم أكن أتقاضى أجرا أقل من ذلك على الأعمــال التى أقوم بهــا ، لرأيتنى أرتدى ثوبا جديدا .

اللوحة الحادية عشرة

القاضى : إنى أراك مهموما ، ياجوفان ، من أين أقبلت مخفوض

---

(١) الأبيض عملة ساوى ثلاثة دوانق .

الرأس هكذا ؟

الشرطي الثاني: الحقيقة ، ياسيدي ، أن قلبي مضطرب بشكل غريب ، وإني لجد مذهول من ذلك

القاضي : لامفر لنا جميعا من الموت ، سواء أردنا أم لم نرد .

الشرطي الثاني: أعرف ذلك جيداً ، ياسيدي ، ولكن الذي يدهشني أنه منذ قليل ، وبعد أن أصبح الوقت ضحى ، كان يروح ويجيء في المدينة ، ويتكلم مع هذا أو ذاك ، وهو في أتم صحة .

الشرطي الأول : والله إنها لخسارة أي خسارة أن يكون الله قد أراد به ذلك .

القاضي : لايستطيع أحد أن ينزع من رأسي فكرة أنه لم يمت على هذا النحو المفاجيء إلا لأنه ضرب أو خنق أو صرع ، وأعتقد أني على حق . هيا بنا ، فإني أريد أن اشترك في تشييع جنازته ، لعلي أجد وسيلة لمعرفة الطريقة التي مات بها .

اللوحه الثانية عشرة

الإبنة : آه ، يا أوباش الجنون ؟ كلما تذكرت وفاءك وحبك

العظيم الذى كنت تغمرنى به ، وحسن طباعك ، أثق من أنى على حق حين أشكـــو وأنتحب من أجلك ؛ لأنى فقدت كل مباهجى ، وغرقت فى بحر من الألم . آه ، أيها الموت ! ما أقساك حين فرضت علينا البعاد بعد هذا الزمن الوجيز ! خذنى ، أنا أيضاً ، التهمنى ! خلصنى من هــذا العالم ، فإنى أفضل ذلك ألف مرة على أن أعيش فى هذه الشدة .

القاضى : أسبغ الله سلامه ولطفه عليكم جميعاً !

غليوم : وجزاك أيضاً مثل ذلك ، يا مولاى ، بكرمه .

القاضى : الحقيقة أنى فى غاية الحزن ، ياماری ، من أجل مصيبتك، ومن أجل هذا الموت . وكم كنت أتمنى أن أحــول دونه ! وأريد أن أسألكم : كيف اختطف من بينكم بهذه السرعة؟ هل كان يشكو مرضاً ؟

غليوم : اعلم ، ياسيدى القاضى ، أننا منذ أن زوجناه ابنتنــا ، لم نسمع منه ـ أو من غيره ـ أنه يشكو مرضاً داخلياً، لا من هنا ولا من أية ناحية .

القاضى : لذلك يدهشنى أن يكون قد مات على هذا النحو . وأنت

يا امرأة ، ألا تعرفين شيئا عن طريق روحك ؟ ألم يكن في جمعية ما دبرت له هذا الشر ؟ أخبريني .

جيبور : كلا ، ياسيدى القاضى ، بشرفى ،أنا أيضاً جد مذهولة من موته بهذه الصورة المفاجئة .

القاضى : (للشرطيين) : تقدما ، أنتما وحدكما ، افتحا لى هذا النعش بسرعة ، ومزقا كفنه بحيث أستطيع أن أراه من الرأس حتى الفخد ، وذلك لكى أبعد عن نفسى كل شك ، وسأواصل تحقيقى حتى نهايته قبل أن يتم دفنه .

الشرطى الأول : سنفعل ذلك بغاية السرعة ، يامولاى . هلم ! ولنرفع هذا الغطاء ـ ياجوبان ـ ثم لنمزق الكفن ، مادام ذلك ضروريا .

الشرطى الثانى : ماذا؟ ! لننهض دون نقاش ، سأفك هذه الخياطة ، أتعد هذا كافياً ، يامولاى ؟

القاضى : اكشف لى كل وجهه جيداً ، حتى ارى العنق والصدر . كفى ! اقبضوا على الأم والابنة والأب . ليس فى وسعهم أن ينكروا الاغتيال : فهذا أمر واضح . انظروا كيف أصبح عنقه أسود اللون . لاشك أن شخصاً قد خنقه . عجلوا بالتنفيذ دون ثرثرة ! اربطوا لكل منهما يديه متقاطعتين

خلف ظهره ، وسوقوهم كالكلاب فى الزمام ؛ ولن يهدأ لى بال حتى أعرف حقيقة هذا الأمر .

الأخ : أمدنا الله بعون من عنده ! وا أسفاه ! ماهذا ؟ أخى، ليس فى مقدورى إلا أن أحزن لموتك ، مهما تقوّل المتقوّلون .

ابن العم : أيها الموت الذى اختطفه ، لعنة الله عليك ! لقد أختطفت أشجع أفراد أسرتنا وأعقلهم . وا أسفاه ! إنها لخسارة كبيرة أن يصل المرء إلى هذه الدرجة من التهذيب ليموت هكذا سريعاً (١)

القاضى : أيها السادة ، هناك شىء أستطيع أن أؤكده لكم ، إنه قد قتل ؛ وهذا ما لا أشك فيه . أما أنتم ،فإنه لن ينجو منى أحد منكم ، وأقسم لكم على ذلك ، وما دام الأمر على هذا النحو ، فلابد من الوصول إلى الحقيقة .

غليوم : سيدى القاضى ، أستحلفك بالله أن ترأف بحالنا ! لاتعاملنا بهذه القسوة ، فإننا على استعداد لأن نذهب أو نبقى حيثما أمرت .

---

(١) هذا رثاء جنائزى أو تحسر على الميت ، وفى بعض الأحيان يصل هذا التحسر فى أناشيد المفاخر وفى قصص الجاملة ـ حدا يجعل منه مرثاة حقيقية .

القاضى : لاجدوى لما تقول ! (للشرطيين) أيهـا السادة : افعـلا ما أمرتكما به .

الشرطى الأول: اعتبر الأمر منتهيا ، يامولاى . قم ياروبان بتقييد الأم ريثما أقوم أنا بتقييد الأب ، وعجِّل .

الشرطى الثانى: لست فى حاجـة إلى أن تقـول لى ذلك أكثر من مرة واحدة . أقسم لك بروحى أنى سأسارع ما استطعت . هيا ! ناولينى ذراعيك ياسيدتى بسرعة .

جيبور : وا أسفاه ! ياتعاستى ! ما أشق هذا على نفسى ، ولـكنى لا أستطيع له رفضا . هيا ـ ياسيدى ـ افعل بى ما تشاء .

الابنة : وا أسفاه ! يالشقوتى ! يالهذا الألم المر الذى يـكاد يخنقنى حين أرى أبى وأمى يعانيان هذه المعاملة من قبل العدالة التى تبدأ بتقييدهما وتـكبيل أيديهما ، وذلك كله بسبب موت زوجى الذى ينفطر قلبهما حزنا عليه .

القاضى : ستعاملين ، أنت أيضاً ، هذه المعاملة ، ياصديقتى الجليلة ، وستذهبين معهما ، دون إبطاء . كبلها ، كبلها .

الشرطى الأول: سمعا وطاعة . هيا ، ياصديقتى الجليلة ، مدى لى يديك لـكى أكبلهما . من العبث أن ترفضى ، فهيا أسرعى .

الابنة : ها أنذى ، وقد انقضت على جميع المصائب التى يمكن أن تصاب بها امرأة ! فهذا زوجى وقد اختطفه الموت ، وهذا أبى وأمى وقد أحدق بهما خطر النفى ، وأنا نفسى أرانى مكبلة مقيدة لكى أقاد كامرأة محكوم عليها بالإعدام . آه ، ياسيدة السماوات! ألقى علىّ نظرة عطف من عينيك العذبتين .

القاضى : إلى الأمام ، إلى الأمام ! لاتبطئوا . أيها السادة ، قودوهم أمامى . إنه يتحتم عليهم — بمقتضى اليمين الذى أقسمته أمام الملك — إما أن يعترفوا لى بالحقيقة ، وإما أن يخضعوا للاستجواب .

الشرطى الثانى : هيا ، مدوا خطى السير ، دون إبطاء .

القاضى : ادفنوا هذا الجثمان فورا .

ابن العم : من رأيى ، يا ابن عمى ، أن نوقف عرض التابوت فورا ، وأن نحمله إلى المقبرة مباشرة ، ثم نوصى بإقامة قداس مهيب له بعد الانتهاء من دفنه .

الابنة : حسن جدا . اعملوا على تنفيذ ذلك ، أيها الناس الطيبون، من فضلكم .

غليوم : أيتها العذراء ، يا أم ملك السماء الحبيب ، ياملجأ الحائرين ومأ واهم ، ياسيدتنا ، امنحينا حمايتك ؛ فإننا فى حاجة إليها .

القاضى : أسرع ، يا جوبان ، وبعد الانتهاء مما أنت فيه ، دع الأم فى السجن، ثم سق الابنة أيضا إلى الفردوس[1] من الناحية الأخرى ، وفى هذه الأثناء سأقوم ، أنا باستجواب غليوم .

الشرطى الثانى : سأفعل ذلك ، ياسيدى مادمت تأمر به .

جيبور : مولاى ، مولاى ، سرح هذين البريئين حرين مطهرين ، واقتص منى أنا ، فإنى أسلم بذلك ، لأن قلبى لم يعد يحتمل مايقاسيان من آلام .

واعلم ، يامولاى ، أنهما لاشأن لهما بهذه القضية . فأنا التى عملت على تنفيذ الجريمة ، أنا وحدى .

القاضى : يجب أن تقولى لى ، كيف ارتكبت هذا الاغتيال ، كما لا بد أن أعرف الدافع إليه .

---

(١) أى السجن ، من باب التهكم ، وربما كانت هذه إشارة مسرحية معناها من جهة الفردوس فوق المسرح .

جيور : سأعترف لك بالحقيقة كلها[1]

... ...

القاضي : كفي وسقها ، ياجوبان ، إلى حيث أمرتك .

الشرطي الثاني: مولاى ، سمعا وطاعة . من هنا ياسيدتى ، من هنا !

القاضي : مما لاشك فيه أننى لم أسمع — منذ من طويل — عن مثل هذا الاغتيال الدنيء ؛ والآن أرد إليك حريتك كاملة ياغليوم ، وكذلك أرد إلى ابنتك حريتها . فاخرجا ، اذهبا من هنا بأسرع ماتستطيعان .

غليوم : مولاى ، سننفذ أمرك ، كما يجب أن يكون . أما أنت يا ابنتى ، فاعلمى أننى لن أدخل بيتا من البيوت التى أملكها قبل أن أذهب إلى دير العذراء — فى فينستير(٢) — لكى أصلى لها ، وأطلب منها أن تشمل أمك برعايتها ، فإنى أرى أن حياتها فى خطر ، هذا مالا شك فيه .

---

(١) هنا تشرح جيبور كيف ارتكبت الجريمة .

(٢) تكتب فى المخطوطة فينتر Finetorro ، ولعل المراد بها قريه فينستير الواقعة فى إقليم جاليس (إسبانيا) بالقرب من الرأس المسماة بهذا الاسم.

الابنة : أتفعل ذلك ؟ وأنا أيضا سأذهب ، مباشرة ودون إبطاء ، إلى ليموج ، وأقدم إلى القديس « ليونار » ما يعادل وزن جسمى من الشمع ؛ لكى يتوسل إلى مخلصنا أن يحمى أمى ، وأن يحفظها من موت قاس مهين .

غليوم : أرجو من تلك التى هى مليئة بالفضل أن تعطف عليها فى كربتها ! ولا بد لى ، يابنيتى ، أن أباركك قبل الرحيل، وأستودعك الله ،فلست أدرى ما إذا كنت سأعود إلى هنا يوما من الأيام .

الأبنة : وداعا ، يا أبى ! ولن يقر لى قرار قبل أن أحج إلى القديس ليونار ؛ لأحمل إليه رجائى .

اللوحة الثالثة عشرة

الأخ : سيدى العزيز ، لقد جئنا هنا طمعا فى فضلك؛ لكى نطلب منك أن تقتص لصديقنا .

القاضى : أهو قد دفن أم لا يزال فى القاعة حيث تركتكم معه ؟ إنى أعرف الحقيقة حول هذه الجريمة ، فماذا تقول ؟

الأخ : نعم ، ياسيدى ، لقد دفناه .

القاضى : عما قليل ستجد ما يرضيك . ياأوبرى ، اذهب وأحضر الجلاد ، وقل له أن يعجل بنصب المشنقة من أجل إعدام امرأة . وليأتنى فورا بمجرد أن يتم كل شيء ، وليكن ذلك بكل سرعة .

الشرطى الأول: سمعا وطاعة ، ياسيدى . الحقيقة أنى أرى أن هذا العمل لا يعنى غيرى .

اللوحة الرابعة عشرة

الشرطى الأول: هيـــا ، يا كوشيه ، أسرع ولا تضيع دقيقة واحدة . بأمر القاضى ، سيدنا ، اذهب سريعا، وانصب مشنقة فى البيت العتيق المتهدم . أسرع دون إبطاء . و بمجرد أن تنتهى من عملك ، اذهب إلى القاضى فى الجلسة . هيا عجل .

الجلاد : لن يلبث كل ذلك أن يتم ، ياصديقى . سأشرع فيه من فورى . أخبره أنى سأذهب إليه دون تلكؤ .

الشرطى الأول: سأقول له ذلك ، ياصديقى كوشيه .

اللوحة الخامسة عشرة

الشرطي الأول: مولاي ، لقد كلمت كوشيه . ولديه المذراة ، والعمود ، والكلابة،والحبال ، وكل ما يلزم ، وبعد قليل سيأتي لرؤيتك بكل تأكيد .

القاضي : الآن ، ياجوبان ، أحضرلي جيبور هنا أمامي دون إبطاء . فإني أريد أن أعرف ما إذا كان لا يزال لديها شيء تريد أن تقوله لي .!

الشرطي الثاني : فورا ، يامولاي ، سأذهب . هيا اخرجي ، ياجيبور ، يجب عليك أن تمثلي فورا أمام القاضي .

جيبور : يا أم الإله الرقيقة ، هل لك أن تتذكري تلك البائسة !! فإني لا أعتقد أني سأظل على قيد الحياة وقتا طويلا ، لذلك أتوسل إليك ، يا سيدتي الرقيقة، أن تشملي روحي برحمتك ، وإن كنت آثمة . آه يا سيدتي ! أغيثيني بكرمك .

القاضي : جيبور ، يا صديقتي ، إني أعرف ـ من نص اعترافك ـ أنك أنت التي قتلت صهرك،وسببت له الضياع. هكذا قدعرضت على القضية ، وبرأت زوجك وابنتك ، وحملت الإثم كله

على كاهلك .

جيبور : هذه هى الحقيقة ، يامولاى ، أقسم لك على ذلك ، وقد أخبرتك ببواعث هذا الفعل ، وحدثتك عن كيفية ارتكابه وما أنذى أرى أنكم أتيتم بى هنا للعقاب ، فليسبغ الله رحمته على روحى ، وليتكرم برفعها إليه ، وليحفظها ويجنبها الجحيم التى لاشىء فيها غير العذاب .

الأخ : سيدى العزيز ، أطلب منك أن تقتص لى فورا من هذه القاتلة الشنيعة التى اغتالت أخى غدرا . أرجو أن تتكرم بإحقاق حق فى هذه اللحظة دون إبطاء .

ابن العم : سيدى ، لاشك أن طلبه طلب عادل ؛ فما دامت قد اعترفت بالحادث ، فقد أصبح من حقه أن تجيب مطالبه .

الجلاد : مولاى ، لقد أصبح كل شىء معداً ، كما أمرتنى ، فإذا كنت تريد شيئاً آخر ، فما عليك إلا أن تصدر إلى أمرك .

القاضى : خذ حبلا ولفه حول عنق هذه المرأة ، فقد استحقت الموت المهين ، كبل أيضاً يديها ، وبعد ذلك سنغادر هذا المكان إلى مكان التنفيذ .

الجلاد سأقوم بواجب مهنتى ، مادمت قد أمرتنى بذلك .

جيبور : وا أسفاه ! إليك ياسيدتنا التى أهلتك فضائلك العظيمة القيمة لدى الله لأن تكون لك السيادة على جميع الأرواح المجيدة التى تسكن الفردوس، وتستطيع البقاء فيه أبد الآبدين. إليك ، يامريم العذراء ، أتوجه راجية أن تعينينى فى محنتى ، وأن تسبغى رعايتك على روحى ؛ لأنى أرى جيدا ـ ودون ارتياب ـ أن جسمى لن يلبث أن يموت أشنع ميتة .

الأخ : ليس فى وسع إنسان أن يبلغ حد الكفاية فى أن يوجه إليك الاتهام والازدراء ، أنت أيتها القاتلة التى اغتالت أخى بتلك الصورة الشنيعة .

القاضى : سأجعلها تدفع ثمن جريمتها . اذهب ، يا أوبرى ، من فورك إلى الميدان العام ، وناد بأنه يجب ألا يتغيب رب أسرة عن الحضور إلى ساحة الإعدام ، ثم ارجع بعد ذلك .

الشرطى الأول: سأفعل ذلك ، يامولاى .

اللوحة السادسة عشرة

الشرطى الأول: أنصتوا جميعاً : إليكم ـ مجتمعين ومنفردين ـ أوجه الأمر بأن

تذهبوا سريعا لشهود الإعـــدام الذى سينفذه السيد القاضى ، وذلك لـكى تروا جزاء من يجرم فى حق الملك .

الجار الأول : أنا ، والله ، أفضل الذهاب على دفع الغرامة .

الجار الثانى : وأنا أيضاً سأذهب للسبب نفسه .

القاضى : قفا ! أصبح عدد أفراد الموكب كافيا ، ولا بد أنه سيأتى عدد كاف من الأشخاص . سيرا أمامى ، أنت وهى ، يجب الانتهاء من هذه القضية ، يا كوشيه ؛ فإن البطء فى مثل هذه المسائل لايفيد . هيا ، هيا .

الجلاد : إلى الأمام ، يجب أن تجمعى أمرك على اتباعى ، ياسيدتى ، وليس لك أن تسألى : ماهذا ؟ فـأقودك فى طرف هذا الحبل، كما يجر الـكلب من مقوده .

جيبور : آه ، يا إلهى ! لماذا لايتوقف قلبى عن الخفقان ، ولماذ لاينفجر ، حتى أموت قبل أن أتجرع المزيد من عار الـكارثة التى أرانى غارقة فيها ؟ سيدى القاضى ، تـكرم على بهذه المنحة من فضلك ، اسمح لى بالتوقف هنا بعض الوقت لـكى أصلى لسيدة الفضل ، مادمت أمر أمام كنيستها . أنى أتقدم إليك بهذا الرجاء .

الجار الأول : أجبها ، ياسيدى العزيز ، إلى هذا الطلب ابتغاء مرضاة الله ، دون أن تسمح لها بدخول المكان المقدس ، فهذا عمل صالح .

الجار الثانى : لاشك فى ذلك ، ياسيدى . فإنى أعتقد أنها ستموت أطيب نفسا ، إذا منحتها هذه اللحظات القصيرة ، وقد أمرنا الكتاب المقدس بأن نود الخلاص لكل مخلوق .

القاضى : عجلى، إذن ، أيتها المرأة ، فإنى قد سمحت لك بذلك ، مادام الجميع يرجوننى أن أسمح به . هنا ، اركعى على ركبتيك .

جيبور : سمعا وطاعة ، ياسيدى العزيز الكريم — آه ، ياسيدة الرحمة ! اشفعى لروحى لدى الرب ، ابنك الحبيب .
أنت ، يامن تعتذرين للخطاة ، وتمجدين أتباعك فى السماء .
ارأفى بيأسى . سيدتنا ، يا أم خالق الكون الرءوم ،
ارحمى بلطفك تلك التعسة التى تفيض نفسها بالأحزان
والآلام ؛ لأنى فى أشد الحاجة إلى عونك . أنقذى روحى
ساعدى روحى ، لأن جسمى لن يلبث أن يهلك حرقا

وشياً فى النار . لذلك أتهم نفسى أمامك بأنى آثمة بائسة، وأعترف لك بجميع الخطايا التى اقترفتها فى حق ابنك ، بالفكر، أو باللفظ، أو بالفعل . ياسيدتنا ! اطلبى لى العفو من الله ؟ فإنه هو وحده الذى فى مقدوره أن يمنحنى إياه ، وهو الذى يرى توبة القلوب بكل وضوح .

القاضى : إلى الأمام ، إلى الأمام ! قفوا ! هيا بنا لقد توقفت هناك أكثر مما ينبغى ، فليس لدى من الوقت ما أضيعه ، وقد انقضى الجزء الأكبر من النهار . أسرعى ، يا جيبور ، سيرى ، سيرى . عجل باقتيادها يا كوشيه . لابد من شى جسمها فى نار حامية .

جيبور : آه ، أيتها العذراء ، أيها الحجر النفيس ! إنى أخاف ــ خوف من الصاعقة ــ هذا القاضى الذى يتحرش بى ، ويتميز ضدى من الغيظ . أيتها العذراء الطاهرة دون غبار ، ياملكة العالم بأسره، ياعاهلة السماء وسيدتها ، اجعلى عذاب هذه النار ، وذلك الموت الشنيع المهين سدا منيعا بينى و بين عذاب الجحيم ، أنت ياملكة السماء المجيدة . احفظى روحى كما لو كانت متاعا لك ، فإنى أهبك إياها .

الجلاد : مادام لابد لى من الانتهاء معك ياسيدتى ، فإنه يتحتم عليك أن تجثى هنا على ركبتيك ،نعم ، هكذا وسأربطك من جانبيك ـ بهذا العمود ، ثم اصنع عقدة حول عنقك وصدرك ، وأشدها دون توقف .

جيبوز : أتوسل إليكم ـ يامن تنظرون إلى وجها لوجه ـ أن تدعوا سيدتنا من أجلى.هاهم أولاء سيحرقون جسمى بالنار واللهب، فليكن فى مقدور روحى أن تتجنب نار الجحيم ، وألا تعانى لسانها ، أرجوكم ، أيها الناس الطيبون ، ألا يكون فى هذا الموت المخزى مايؤخذ على زوجى الذى لاشأن له به ، وكذلك الحال بالنسبة لا بنتى ؛ فإنى أعتقد اعتقادا جازما أن موتى سيقض مضجعهما و يغمهما ، ويغرقهما فى الأحزان،وأنهما يشاطرانى آلامى دون أن يستطيعا رداً لها ولا فرارا منها .

القاضى : فكر فى الإسراع ، ياكوشيه . إنها الآن مكتوفة بحبال شديدة ، فضع حولها قطع الخشب والقش من جميع الجوانب ، ثم أشعل فيها النار دون لف أو دوران .

الجلاد : لن أذوق الطعام أو الشراب قبل أن يتم ذلك . انظر ،

يا سيدى ، لا أظن أنه كان يمكن أن نفعل خيرا مما فعلنا ؛ فها هى ذى قطع الخشب تحيط بها من كل جانب ، كما لو كانت فى وسط معجنة .

ولذلك لن تلبث النار أن تلتهمها .

القاضى : إلى النار ، إلى النار دون انتظار ! إلى النار بكل سرعة !

الجلاد : فورا ، ياسيدى . سأحضرها ؛ فقد أصبح كل شىء الآن على تمام الاستعداد .

اللوحة السابعة عشرة

الرمز : أمى ، أى أمى ، هذه هى الساعة : حانت اللحظة التى يجب أن تنزلى فيها ، وتدافعى عن جيبور وتنقذيها ، جيبور التى تناديك بكل ضراعة ، وتتوسل إلى برحمتك أن تغفرى لها جريمتها .

هيا ، أنقذيها ، ولتعجز النار التى تضطرم من حولها عن إصابة جسمها بالألم أو الضرر ، ولتقصر عن سلبه صفة الحياة .

سيدتنا العذراء : أى بنى ، إنى على استعداد للذهاب ، انهض ، ياجبرائيل ، وانزل أنت أيضا ياميكائيل ، وترنما بالنشيد على طول الطريق

جبرائيل : سيدتى العذراء ، سيتم كل شىء على ما ترغبين أن يكون .

إلى الأمامياميكائيل ، ولنترنم بالنشيد ـ ياصديقى ـ مادمنا قد انخرطنا فى الطريق ، لنترنم بألحان عذبة[1] .

حلقة[2]

أيها الرب القادر الرحيم ،
إن رحمتك الواسعة
تجعل الخطاة يتوبون
إليك ، و إنه لالتجاء عذب ،
أيها الرب القادر الرحيم ؛
والحقيقة أن تدخل
لطفك ـ الذى لا تنساه الأذهان ـ
ينتزع قلوباً كثيرة من غوايه الشيطان .

---

(١) الملائكه تنشد مصحوبة بآلات وترية ، وأرغونات صغيرة يمكن حملها

(٢) يورد المؤلف هذه المقطوعة المساة بالحلقه rondel فى نصها الانجليز النورماندى ، وهى لهجة تختلف عن اللغة الفرنسية الحاضرة اختلافا كبيرا ، ومن شأن الحلقة فى الشعر القديم أن تحتوى على قافيتين فقط . وهى هنا تتكون من ١١ بيتا ولكنها فى معظم الاحيان تتكون من ٩ أبيات أو ١٠ او ١٢ او ١٥ بيتا وتنحصر السمة الأساسيه للحلقة فى لازمتها التى تتكرر ثلاث مرات .

أيها الرب القادر الرحيم ،
أن رحمتك الواسعة
تجعل الخطاة يتوبون .

: سأضرمها نارا حامية كثيرة الوقود إلى حد أن تحمل من حولها على الانسحاب بعيداً عنها .

العذراء: اطردوا ـ يا أصدقائى ـ هذه النار عن صديقتى الوفية ، حتى لا تصيبها بالضرر . ليشتد قلبك ، ياجيبور . وتأكدى أن هذه النار لن تلحق بك ألما أو عذابا ، ما دمت قد دعوتنى بكل هذا الورع .

: سيدتى ، يامن لك الحظوة والامتياز على قديسى الفردوس جميعاً ، يامن لك الحق فى أن تُمتدحى بالفم والصوت والكلام ، إذا كان قد طاب لك أن تبعدى هذا الموت القاسى عنى ، أنا التعسة ! أنا الضعيفة ، فكيف يتأتى لى أن أرد لك هذا الصنيع ، يامريم العذراء ؟

: أعتقد اعتقادا جازما أن تلك المرأة ستحترق ، فإن هذه النار قد قذفت بشرر عال شديد الحرة .

الأخ : لقد كان الوقود جافا يامولاى ، وإذا أمسكت بها النار ، فلتحترق : فلن يعترينى لموتها أسف أو غضب .

الجلاد : مولاى ، إنى أرى الأغلال والحبال والأحزمة وقد اضطرم لونها ؛ لم يبق شىء إلا أحرقته النار ، ولكنها هى لاتزال سليمة ، لم يصبها جرح ، ولم تسل منها قطرة دم . بل إنها ـ على العكس من ذلك ـ لاتزداد إلا جمالا .

الأخ : أقسم بالحشا والدم ، أيتها القاتلة ، أنك لن تنجى هكذا ، بل ستحترقين من فورك ، نعم ، لن تفرى من الموت بهذه السهولة. هيا ، أسرع يا ابن عمى ، ولنذهب لإحضار الكثير من القش والخشب والأوراق والقشور الجافة؛ لكيلا تنجو من الموت بعد هذه الضربة .

ابن العم : أنا لا أطلب خيرا من ذلك ، فهيا يا ابن العم .

الأخ : أيها القاضى ، لما كنا نريد أن تحترق هذه القاتلة بكل سرعة ، وأن يتناثر لحمها رمادا ، فقد أتينا بما ينبغى لذلك .

القاضى : ألقيا فوقها بكل ما معكما ، فقد أذنت لكما بذلك ، حتى تشتعل فيها النار ، وحتى لايبقى منها شىء ، لا لحم ولا عظم .

السيدةالعذراء:أيتها النار ، إنى أنهاك، وأحرم عليك أن تمسى هذه المرأة ، أو أن تصيبيها بضرر . تشجعى ، ياصديقتى الجليلة ، وهيا بنا ، أيها السادة — أنتم وأنا — نصعد إلى السماوات .

ميكائيل : سنسير تبعا لرغبتك ـ ياسيدتى ـ انهض، ياجبرائيل، ولنترنم بأصوات مؤتلفة .

حاقة[1]

والحقيقة أن تدخل
لطفك الذى لاتنساه الأذهان
ينتزع قلوبا كثيرة من غواية الشيطان .
أيها الرب القادر الرحيم ،
إن رحمتك الواسعة
تجعل الخطاة يتوبون
(العذراء والملكان ينسحبون)

---

(١) يورد مؤلف الكتاب هذه المقطوعة فى نصها الأصلى دون ترجمة

جيبور : أيها السادة ، باسم الشفقة ، أرجوكم بكل خضوع ، أتوسل إليكم ، أن تقوموا بعمل طيب ، أنقذوني ، تفعلوا خيرا وكونى على ثقة بأنى لا أحس شيئا مما يفعل بى : إنى فى حماية كرم الرب .

لاتخجلوا من هزيمتكم ؛ لأن درعى هو السيدة العذراء التى هى ملكة السماوات وسيدتها ، وكذلك الرب الذى صار كفيلى معها .

القاضى : أيها السادة ، أيها السادة ، لاشك أن هذه معجزة ، وعجيبة كبرى لم يسبق لى قط أن رأيت لها مثيلا . إننا قد ارتكبنا خطيئة شنيعة ضد الرب بتعذيبنا هذا الجسم المقدس ذلك العذاب القاسى .

جيبور أيتها الصديقة العزيزة ، اخرجى من النار . أقسم بروحى ،وأعترف بأنك قديسة ، فلاتخشى شيئا .

جيبور : مولاى ، سأفعل ما تأمرنى به ، سأفعله عن طيب خاطر ودون مناقشة . ها أنذى خارج النار ، فماذا تود منى أن أعمل ؟

القاضى : سيدتى ، ها أنـذا أجثو على ركبتى ، وأطبق يدى على صدرى ، وأطلب منك أن تغفرى لى الحنق والغضب اللذين أثارانى ضـــدكِ ، وأن تتجاوزى عن الأذى الذى سببته لك .

جيبور : أستحلفك الله أن تنهض . فإنى لا أطلب منك أن تذل نفسك على هذا النحو ؛ لأنك — فى الحقيقة — لم تذنب فى حقى بشىء ، فإن جريمتى عظيمة إلى حد يجعلنى أهلا للإحراق مائة مرة ، لو كان ذلك فى الإمكان ، ولـكن لطف السيدة العذراء التى دعوتها من قلبى وروحى ، قد حمانى وأنقـذنى ، فإذا كنت قد أهنتنى فلتغفر لك أم الإله ماصدر منك ، ولتهبنا جميعاً ميتة كريمة ، آمين .

الجار الأول : لا يصح أن نبقى هنا بعد الآن ، فلننطلق معها جميعاً فى موكب إلى الـكنيسة ، لـكى تشكر الرب وأمه اللذين أحسنا حمايتها .

الجار الثانى : هذه فـكرة طيبة ، ويجب علينا تنفيذها .

القاضى : صديقتى العزيزة الطيبة ، إنهم يقولون حقاً ، فسيرى أمامنا ، وسنقتفى جميعاً أثر خطاك .

جيبور : ليكن ، يامولاى ، مادام ذلك يروقكم جميعاً ، وقد فكرت فى ذلك ، أنا الأخرى .

الحل[1]

الرمز : ألا هيا جميعاً ، هيا : فلننطلق .
فى يوم قربانى[2] هذا
وددت أن أسبغ الرضا على جيبور
من أجل القداس الذى قدمته لى ،
استدرارا لعطفى .
أنتما ، أيها الملكان[3] ، سيرا فى الأمام ،
وأنت يا أمى أتبعيهما ،
ونحن جميعاً سنسير من خلفك[4] .

---

(١) يورد مؤلف الكتاب هذه الفقرات حتى آخر التمثيلية فى نصها الأصلى منظومة دون ترجمة .

(٢) هو اليوم الذى دخلت فيه مريم المعبد لتقدم للرب ، الطفل عيسى ، سلحفاتين وحمامتين من أجل تطهيره ، وهذا هو عيد التطهير الذى تحتفل به الكنيسة كل عام فى اليوم الثانى من فبراير .

(٣) يقصد بالملكين ميكائيل وجبرائيل .

(٤) الرب والملائكة الآخرون .

أيها الملائكة ، اعملوا ـ وانتم تسيرون ـ
على أن تترنموا بنشيد جميل .

ميكائيل : سنفعل ذلك ، يامولانا ، عن طيب خاطر ،
ومن أعماق قلوبنا لأسباب عديدة .
جبرائيل ، يا زميلى العزيز ، لنترنم
معا ببهجة ودون غضب .

حلقة

أيها البشر ، ينبغى أن يكفيكم
أن تكونوا محبوبين إلى هذا الحد من الرب
الذى مات شهيداً من أجلكم ،
أيها البشر : ينبغى أن يكفيكم ،
وكذلك حين يقول لكم على ألسنتنا
أحبوه أنتم أيضاً بكل قلوبكم
أيها البشر : ينبغى أن يكفيكم
أن تكونوا محبوبين من الرب إلى هذا الحد.

حنان : أنت ، ياملكة ملكوت الله ،

إذا طاب لك ، فقدى هذه الشمعة :

واعملى بالمثل فى هاتين أيضا .

سيدتى ، سأذهب من هذا الطريق .

أنت ياصديقى منصور ، خذ هذه ،

وخذ هذه الشمعة يالوران ،

لـكى تقدمها أنت أيضا

بعد إنشاد القداس .

وخذى ، أيتها المرأة ، وبحسن نية

وخشوع عظيم لا يشوبه الاعوجاج ؛

احمدى الله على هذه النعمة .

جبرائيل : هيا ! لنبدأ ، بصوت عال ،

مقدمة القداس دون تخلف .

لننشد قداس الاعتراف .

فهيا ، ياميكائيل ، هيا !

(وهنا ينشدون جميعا ، ثم تذهب السيدة العذراء القربان، والآخرون من خلفها ، وبعد ذلك تقول السيدة العذراء)

السيدة العذراء: اذهب ، ياميكائيل ، وقل لهذه المرأة

أن توجه لنفسها أشد اللوم
على أن جعلت القس ينتظر كل هذا الوقت،
وأن تأتى دون أبطاء
لتقدم شمعتها .

ميكائيل : سمعا وطاعة ، أيتها العذراء المجيدة .
أيتها السيدة ؛ تعالى دون أبطاء ،
إلى القربان ؛ فقد طال
انتظار القس : هيا ، قدمى ،
إنه من سوء التصرف أن تجعليه
ينتظر هكذا ...

جيبور : أيها الصديق ، اعلم أن هذه الشمعة
لن أقدمها إلى أحد آخر ،
بل سأحتفظ بها وديعة غالية ،
فليستمر القس ، وليعمل
على أن يتمم قداسه
دون انتظار ..

ميكائيل : سأبلغ هذا الجواب .

أيتها العذراء المجيدة مريم :
لقد أخبرتني أنها لن تأتي مطلقا ،
وعلى القس أن يستمر في صلواته
وأن يتمم قداسه
دون انتظار ...

السيدة العذراء: جبرائيل ، هيا ، اذهب إليها فورا .
وقل لها إنه لا بد من المجيء
وأن لا بد من تقديم قربان
الشمعة في هذا اليوم .

جبرائيل : سيدتي ، سأذهب دون إبطاء
لتبليغ ذلك . أيتها المرأة : سلمي نفسك
فورا ، هذ أمر السيدة العذراء .
أحضري الشمعة للقربان ،
إنك تعملين عملا غير حميد
حين تجعلين القس ينتظر إلى هذا الحد .
فهيا ، سارعي بالانطلاق
وتعالي قدمي ...

جيبور : فى وسعه أن يستغنى عن حضورى .
ليقل قداسه ، فخلاصة القول
أنى لا أفكر فى الذهاب إليه
ولن أذهب إليه ...

جبرائيل : ماأقول هذا لسيدتى ،
وأنك لاتريدين المجىء .
سيدتى ، إنها تريد الاحتفاظ
بشمعتها ، وقد قالت لى فى هذه اللحظة :
إنها لن تقدمها بكل تأكيد :
هذا كل مافى الأمر ...

السيدة العذراء: اذهب إليها مرة أخرى من فورك
وقل لها ألا تتباطأ
فى المجىء ، وأن تقدم الشمعة فورا ،
وإذا أصرت على العكس
فانزع الشمعة بالقوة
من بين يديها ...

جبرائيل : سيدتى ، لن يجدى معها غير ذلك .

أعود إليك ، أيتها الصديقة الجليلة ،

تعالى قدمى ، ولا تتباطئى ،

وإلا نفذت ما كلفت بتنفيذه

وانتزعت من بين يديك

هذه الشمعة بالفعل . . .

جيبور : لن يتأتى لك من القوة ،

أيها الصديق ، ما يمكنك من نزعها من يدى

وإنى أنهاك ، وأحرم عليك

أن تمسها ...

جبرائيل : مادمت سأمسك بها من وسطها

فسأكون المسيطر عليها ،

جيبور : سأركز فى ذلك كل قوتى ،

ومن ثم ستبقى لى بشكل تأكيد ؛

إنما لن تفلت من يدى ،

وكل جذب من قبلك سيكون عبثا .

جبرائيل : لن تلبثى أن تقولى غير ذلك

فسأنتزع هذا الجزء من يدك .
وأنت ، يا سيدة السماء ، إنى أقول لك :
هذا كل ما استطعت الحصول عليه ؛
إذا كنت قد بذلت ما فى جهدى
لانتزاعها ...

رمز : — إلى الأمام : فإنه لا يجوز الشك
فى أن ما لديها منها حق لها
ستحتفظ به كأعز ما لديها
وبكل حرص وتفان .
هيا ، ولنكمل موكبنا
بالذهاب إلى السماء ؛
وأنشدا ، أيها الملكان ، فهذا خير
ما أرى فى ذلك الأمر .

ميكائيل : — أيها الإله الحق ، سنفعل ذلك بكل بهجة ،
ودون أن نخالف لك أمرا .

حلقه : — وكذلك حين يقول لكم — بألسنتنا — :
أحبوه أنتم أيضاً من كل قلوبكم ،
أيها البشر ينبغى أن يكفيكم

أن تكونوا محبوبين من الرب إلى هذا الحد .

جيبور : — أيتها العذراء ، على فضلك العظيم
أشكرك . يا إلهى ! أين كنت ؟
يبدو لى يقينا
أنى كنت فى كنيسة كبيرة .
حيث رأيتك فى صورة ملكة
ومن حولك القديسون من كل جانب ؛
وهناك أنشد ابنك القداس
الذى كان يردده القديس منصور شماسه
والقديس لوران مساعد شماسه .
و بدا لى أنه كان هناك قديس
ناول كلاً منا شمعة ،
وقد بدأ بك أولا
وانتهى بى أخيرا ،
وذلك قبل بداية القداس ؛
و بعد ذلك ، حينما تم القداس
بصوت عال ، وجاء دور القربان ،
بدأت أنت بالتقديم

ثم تتابع الجميع من بعدك .
وعندئذ جاءنى ملاكك مُصراً - كل الإصرار -
على أن أقدم الشمعة التى معى
والتى كنت أريد الاحتفاظ بها كاملة ؛
ولكنى لما لم أرد ذلك ،
أنتزع منى نصفها
وذهب به مستعينا بقوته .
ولكن الذى يعزينى ، يا سيدتى ،
أنه حين قصفها منى وذهب ،
بقى لى منها جزؤها الأكبر ؛
و إنى لأعترف لك ، يا مريم العذراء ،
بأنى كنت فى حالة تجل ،
هذا الذى أشكرك عليه بكل خشوع ،
والحمد لعيسى الذى لم ينسنى :
لقد شاء عطفه الجميل
أن يسممنى اليوم قداسا
الراهبة الأولى :- ينبغى لقلبك - يا جيبور -
أن يركن إلى الله بلا تردد ؛

لأننا نؤكد لك
أنه أرسلنا إليك ـ نحن الاثنتان ـ
لنقول لك أن تعدى العدة
لـكى تأتى دون إبطاء
فتدخلى ديرنا
وتلبسى لباسنا .
الراهبة الثانية : يريد منك أن تتركى غرور
هذا العالم لـــكى تتفرغى لخدمته
وأيضاً لـكى تـكونى أهلا
للمجد العظيم فى السماء .
جيــــــبور : سأقول لـكما قول صدق :
لا شك أن هذه كانت أمنيتى .
فهيا بنا إلى رضاء الرب ؛
ما دام عليـكما أن تصحبانى إليه ؛
إنى على تمـام الاستعداد
للذهاب معـــكما .
الراهبة الأولى : إذن هيا ، ولـكن نصيحتى
أن نتابع النشيد جميعاً ونحن سائرات ،

فنمتدح ملك الملوك الحنون
وأمه التى تخلو من كل شائبة .

من حقك علينا، أيتها العذراء ، أن نمتدحك ،
فمن أجل تخليصنا من الجحيم
قد استحال الإله بشراً بين أحشائك ،
ونجانا من الموت
الذى جلبه علينا آدم ،
حين قضم التفاحة .

سر الآلام

لأرنو جريبان

حصل «أرنوجر يبان» على إجازة الجامعة، ثم على إجازة العلوم اللاهوتية ، وصار عازف الأرغن ، ومدير الترتيل فى كنيسة « نتردام باريس » ، ثم قساً لكنيسة القديس جوليان المنسى ، وقد قام حوال سنة ١٤٥٠ بتأليف (سر الآلام) من أجل (الجمعية الدرامية الباريسية لإخوان الآلام) . وهذا الأثر الضخم ـ الذى يُعَدّ فى نفس الوقت عملا دراميا وغنائياً واقعياً ، بل وهزلياً فى بعض مناظره ـ يحتوى على ٣٤٥٧٤ بيتاً و ٢٢٤ شخصية ، وينقسم إلى مقدمة وأربعة أيام (أو أربع مراحل) ، وهى :

الخلاص ، وحياة عيسى ، والآلام ، والبعث . ويستحق أرنوجر يبان أن يعد بين أعظم المؤلفين الدراميين فى الأدب الفرنسى .

المقدمة

تبدأ المخطوطة بمائتين وأربعين وثمانية أبيات يلقيها الممثل ، وفيها نرى عرضاً لخطة الخلاص العامة، ومقاصد الشاعر ، وملخصاً لليوم الأول . وبعد ذلك تحتوى (فى الأبيات من ٢٤٩ — ١٧١٧) على « مختصر لقصة

الخالق » مع تاريخ البشرية حتى موت آبائنا الأولين . وهذا الجزء من السر الذى لم يمثل فى العروض الثلاثة الأولى التى تمت فى باريس قبل سنة ١٤٥٦ – كما تشير الملاحظات التمهيدية – يذكرنا بتمثيلية آدم ، وبعد ذلك يعود الممثل ليعرض على الجمهور – فى سرعة – مضمون الأيام الأربعة (الأبيات ١٧١٨ – ١٧٤٠) .

اليوم الأول

آدم وحواء وأشعيا وحزقيال وإرميا وداود ينوحون فى الأعراف ، ويرجون بكل أمانيهم ظهور المسيح (الأبيات ١٧٤١ – ٢٠٧١)

وتناقش قضيتهم أمام الله فى الفردوس بين شخصيات (الرحمة) و (العدالة) و (الحقيقة) و (السلام) و (الحكمة) . ويتبين أنه لا يستطيع أن يرضى العدالة ويصلح خطأ الإنسان إلا ابن الإله بعد أن يتجسد ، وينزل جبرائيل – وسط نشيد الملائكة – إلى العذراء المختارة ليحمل إليها الرسالة الإلهية (٢٠٧٢ – ٣٣٩٤) .

بعد ذلك نرى مشهد البشرى (٣٣٩٥ – ٣٦٠٤) ، ومشهد الزيارة (٣٦٠٥ – ٣٦٤٤) . ويحيط جبرائيل الإله علماً بشأن رسالته ، وتتغنى الملائكة بطيبة الإله ومجد العذراء (٣٦٤٥ – ٣٧٠٤) . وتضج

الشياطين فى الجحيم ، وتقسم على ألا تدع أسراها يخرجون من قبضتها ، ويقوم إبليس بإرسال الشيطان إلى الأرض لكى يخبره بما يجرى على سطحها (٣٧٠٥ ـ ٣٩٧٨) .

مؤتمر الشياطين [١]

إبليس : اقفزوا من الأعماق السوداء ،
من المساكن الجهنمية المظلمة ،

وأنتم تنفثون النار والكبريت ،
أيها الشياطين . اقفزوا من هوتكم
واخرجوا من مناطقكم :
آلافا ، وجيوشا
تعالوا اسمعوا قضيتى .
دعوا السلاسل والمشانق ،
وقد علق عليها المشانيق واللصوص ،
دعوا الأفران الحامية ، والأفاعى اللداغة ،

---

(١) كل هذه القطعة مكتوبة فى النص الذى نترجمه باللغة الانجليزية النرمندية دون ترجمة . « المترجم »

والتنانين التى تفوق العاصفة فى ضراوتها ؛
كفوا عن كد أذهانكم ورؤوسكم
فى إذابة تلك المعادن ؛
انستوا لى ، هدموا لى
كل ذلك الرواق الجهنمى القبيح ،
وسارعوا إلى - بكل قوة -
لتسمعوا حديثى .

الشيطان : من الذى يثير هذه الضجة ؟
إبليس ، ملك الشياطين ،
إنك تعوى كالذئب الجائع ،
حينما تريد الغناء أو الضحك .

إبليس : ها ! لعنة الله عليك ، أيها الشيطان !
أما عن ترانيمى وضحكاتى ،
فإنها كئيبة قبيحة ؛
وأما عن عزتى وجمالى ،
فقد أصبحا ضربا من التشويه ،
كما أصبح غنائى نحيبا ،

وضحكى غموما ،
ونورى ظلمة حالكة ؛
لقد تحول مجدى إلى غيظ أليم ،
وفرحى إلى ترح لاشفاء منه ؛
لم يبق لى إلا كبريائى
التى لم تحُل ، ولم تتغير
منذ اليوم الذى خلقت فيه
هناك فى علّيين ، فى مملكة السماء الخالدة ،
دون أن يعتريها أى نقصان .

الشيطان : أما من هذه الناحية ، فإنى أصدقك جيدا ،
فلا تنتظر أن يكون لك منها خلاص ،
ولكن ليست هناك مناسبة لذلك ،
إلا إذا كان المراد مجرد التكرار .

إبليس : دقى الناقوس ، ياعشتروت ،
انفخى فى الصور — بكل قواك —
حتى يخرج شياطين الداخل جميعا
إلى الخارج فورا وفى الحال . . . .

عشتروت : إبليس ، أيها الملك ، خبّرنا

عن حال دولتك ،
هاهم أولئك الشياطين الملعونون
وقد اصطفوا جميعا ليسمعوا صوتك .

إبليس : أنى لأشعر بالبهجة حين أراهم
مجتمعين فى رهط له هذا الجمال ،
ولكنها بهجة ضئيلة القيمة .
بهجة أفسدتها شدة الغضب ؛
واختلطت بالسخط المختزن
الذى لاتكاد تطيقه الروح ...
قبل أن يتقدم سير الأمور
بحيث يتم البت فيها بدونكم ،
أيها الشياطين ، اصطفوا ـ كلكم جميعا ـ
فى صورة جمهور هائل ،
وغنوا لى دورا
بلغتكم الشيطانية المروعة .

عشتروت : سنسمع غناء جميلا ،

على الفور ، ومقطوعة شائقة :
أيها الشيطان ، ستؤدى أنت النغمة القيادية ،
وسأقوم أنا ، بأداء النغمة المنخفضة ،
وسيؤدى «بلزيبوث» أعلى النغمات ،
وسيكوِّن «بيريخ» معه مثنى ،
وسيقوم « سربروس » مقام ثالثهما
الذى لاينقطع ، والله يعلم كيف .

إبليس : هيا ابدأوا بلطف
ألا بد من كل هذا التكلف ؟
ابدأوا ياشياطينى الصغار ،
غردوا أنغامكم ، ورنموها ،
همهموا كاليرابيع النائمة
أو كالغربان الهرمة الساغبة .

بيريخ : ستسمع قصائد جيدة التقفية ،
وغناء مديداً أيضاً ،
هيا ، يابلزيبوث .

بلزيبوث : هيا !

سربروس : هيا !

أعتقد أنك ستسمع جمالا .

(غناء جماعى .)

الموت القاسى الخالد ،

إنه أنشودة الملعونين ؛

إنه يمسكنا جيداً فى سلسلته

الموت القاسى الخالد ،

لقد أستحققناه هكذا

ونحن إليه منساقون ؛

الموت القاسى الخالد ،

إنه أنشودة الملعونين ؛

إبليس : كفى ! إنكم تصدعون مسامعى ، أيها الأشقياء

بهذا الصياح المزعج ؛

كفوا كفوا ، وحق الشيطان ،

إن غناءكم كله نشاز .

[تعود مريم من لدى إليصابات ، وتنقضى ثلاثة أشهر ، فيبدو حملها

واضحا ويعبر يوسف عن قلقه فى حديث انفرادى ذى طابع كلاسيكى بحت (٣٩٧٩ ــ ٤١٩٦) .

قلق يوسف

إن ذهنى القلق لا يستطيع أن يحيد عن مريم ، زوجى القديسة التى وجدتها حبلى . لست أدرى إذا كان فى الأمر شر أم لا . أيتها السيدة ذات الشهرة العالية ، أيتها العذراء المزدانة بالفضيلة ، مريم ، أيتها العاقلة جداً ، ياأحكم النساء وأشدهن تواضعا ، إنك تغرقين قلبى فى الشك . لا أدرى ماذا أستنبط مما فعلت؟! لا أدرى ماذا أقول أناذلك الرجل المسكين؟! مادامت قد حملت ، فلا بد أن يكون حقا أنها أثمت ؛ لأنه ليس منى : إنها لم تحفظ عهدها ، لقد فسخت الزواج . فسخت ؟ ماذا تقول ، أيها القلب الجامد ؟ إنك تلوث كائنا بلغ هذه الدرجة من القداسة . أيها الفم ، حاذر مما تقول ! أتمس شرف أعذب عذراء تعيش تحت قبة السماء ، أوفر العذارى حكمة، وأجملهن خلقا ، تلك التى لم تصدر من فمها الجميل كلمة لغو واحدة ؟ أتتهم هذا المحيا العذب الحكيم بالخطيئة ؟ إنك لكاذب ، فهذا أمر مستحيل . كاذب ؟ ما أشد غبائى حين أنظر إلى حالتها ، فأعتقد أنه ليس فى الأمر من خطيئة ! إنها حبلى ، وممن ؟ إن القانون يقرر أن هناك

جة عزبى ، مادام الوالد ليس شخصى . ياإلهى ! ما أفظع الأمر ! هل أصدقه؟ كلا ، إنى لكاذب ... لست أدرى . ولقد تغيبت عن هذا المكان ثلاثة أشهر ، وفى نهاية الشهر الثالث ، رأيتها تقبل حبلى . أيكون هناك شرير غرّربها أو اغتصبها ؟ الحقيقة أنى لا أدرى ماذا أفكر . ولكنى فى الحقيقة قد رأيت فيها نوعا من الكمال العظيم يجعلنى أصر - ماحييت - على الإيمان بأنه لم يقع منها خطأ . وبعد فهذه هى الطريق التى أرى أنها تجنبنى جميع المخاطر . سأحزم أمتعتى وأغادر المكان منذ الصباح الباكر دون أن أخطر أحدا . سأتركها وحيدة ، وأرجو الله أن يحفظها من السوء .

ويبعث الإله بالملاك جبرائيل لكى يطمئن يوسف الذى يطالب الصفح من مريم (٤١٩٧ — ٤٢٨٠) . ويأمر قيرينوس حاكم يهودا بإعلان مرسوم « أوغسطس » القاضى بإحصاء رعايا الإمبراطورية كلهم . فيعتزم يوسف ومريم وابن عمهما إلياسين الذهاب إلى بيت لحم - مهد أسرتهم - استجابة لأوامر المرسوم (٤٢٨١ — ٤٤٦٢) . ولم يجد المسافرون لهم مكانا يأوون إليه الا « كوخا عتيقا » حلوا فيه هم وثورهم وحمارهم (٤٤٦٣ - ٤٦٣٧) .

ألوريس (الراعى الأول) : ـ الجو لطيف لابأس به . هذا الفصل بالنسبة للرعاة ، والحمد لله !

إيسمبرت (الراعى الثانى) . ـ إن الجو جميل مقبول بالنسبة لمن لايشتط فى الطلب .

بليون(الراعى الثالث) : ـ لن استطيع البقاء فى المنزل ، وأنا أرى هنا هذا الجو المنعش .

ألوريس : إن الجو لطيف لابأس به ، هـذا الفصل بالنسبة للرعاية ، والحمد لله !

إيسمبرت : تبًا للغنى ، وتباً للقلق ! فليست هناك حياة ـ أيا كانت ـ تعدل حياة الراعى .

بليون : بالنسبة للناس الذين يلهون على هذا النحو ، تبا للغنى ، وتبا للقلق !

رفلارت(الراعى الرابع):وأنا أيضاً ، اعتبرونى منـكم بلحيتى التى وخَطَها الشيب، .فإنى حين أرى لدى من الخبز ما يكفينى ، أصيح قائلا : تبا للغنى ، وتبا للقلق !

ألوريس : ليس هناك حياة ، أيا كانت ، تعدل حياة الراعى .

إيسمبرت : أهناك متعة تعدل فى عذوبتها متعة النظر إلى هذه الحقول

الجميلة ، وتلك الحملان الوديعة التى ترعى وتمرح فى المرج الجميل ؟

بليون : يتكلم الناس عن الإمارات الكبيرة ، وعن امتلاك القلاع والقصور الشاهقة . فهل هناك متعة أعذب من النظر إلى تلك الحقول الجميلة ؟

رفلارت : إذا كانت مخلاتى مليئة برءوس الثوم الكبيرة المغذية ، فإنى أغرد بنايى أغنية تعدل جميع السمفونيات .

ألوريس : أهناك متعة أعذب من متعة النظر إلى هذه الحقول الجميلة ، وتلك الحملان الوديعة التى ترعى وتمرح فى المرعى الجميل ؟ إن الرعاة كلما شاهدوا صفاء الجو ، ابتهجو وغنوا وأولموا ، ولم يدعوا ضربا من ضروب اللهو إلا تسلوا به فيما بينهم : إنهم يزينون قبعاتهم وينظفون ملابسهم ، ويهتمون بخرافهم، ويطلقون كلابهم غير المدربة ، ثم يدعونها إليهم من جديد . ويمضى النهار ، وحين يقبل الليل يحكمون إغلاق حظائرهم ، فإذا ما أقبلت الذئاب الجوعى تبغى الهجوم ، صدتها الكلاب .

إيسمبرت : إن الرعاة حين يحرسون نعاجهم يقضون وقتا سعيداً ، فهم

إذ يحرسون نعاجهم يلعبون بآلاتهم الموسيقية ، ويغردون أغانيهم البسيطة فى مرح وسرور خالص ، كما أن الراعيات الشابات العذاب يعرفن كيف يغنين ويقتطفن العشب العطرى والأزهار الجميلة . آه ! ما ألذ أن يعيش المرء مائة عام ، وأن يتسلى على هذا النحو ! إن الرعاة يقضون أوقاتاً سعيدة .

بليون : مادام الراعى يستحوذ على مخلاة جيدة الإغلاق ، مخلاة متينة خالية من الثقوب ، فإنه يعتبر ملكا صغيراً ؛ إذا كان لدى الراعى مخلاة متينة الأقفال، ويمكن إغلاقها من خلفها بصورة محكمة . فماذا ينقصه ؟ ماذا ؟ إن لديه قبعته الخوصية ، ومثقابه، وكيسه الذى يضع فيه مخرازه وكلابته وعصاه الحبيبة ، والصندوق الذى يحفظ فيه صبغته ، والثوب الجميل الذى يستر به جسمه ، والناى الطويل الجميل الذى يستخدمه فى تسليته ، والحذاء الجلدى المدعم من جهته الخلفية خير تدعيم . فما عليه إلا أن يمرح ويستمتع : إنه ملك صغير .

رفلارت : ومقصه وسكينه وقفازيه السميكين ذوى الأصبعين، وسفطه الذى يضع فيه الجوز، وتقويمه الخشبى ، والشحم الذى يتقبل به طبق البازلاء ، ومعطفه الشتوى ، كل هذه الأشياء أليست

ذات قيمة بالنسبة له ؟ والتزالك الضخمة ذوات الثنايا ، وما يكون لديه من نايين صفصافيين أو ثلاثة، والدفاف والنايات المختارة ، وذلك الحذاء البدائى للانزلاق على الجليد ، والمقود الذى يشبه مايرى منه فى أيدى إخوان المرح ؛ لكى يقودوا به كلابهم الكبيرة . إنى لو أردت أن أصف كل ما لدى الرعاة لاحتجت إلى أشهر كاملة

ألوريس : إننا هنا نترنم بأناشيدنا ، ولكنى لا أرى راعيا واحدا يفكر فى الذهاب لعمله ، والعناية بنعاجه.

إيسمبرت : لاتعجل ، ياألوريس ، إن الشمس لاتزال عالية . فإذا رأينا أن الوقت قد حان ، أستطعنا أن نسارع بالذهاب .

بليون : لنبق فى هذ المكان بعض الوقت ، دون أى قلق . فليس هناك خير منه بالنسبة لنا ، ومن العبث أن نوغل فى الصعود أكثر من ذلك . فنحن هنا نرى خرافنا ونعاجنا تجتر ومن العسير أن يضل أحدها دون أن نسارع باللحاق به .

رفلارت : دع كل هذا الآن ، وحدثنا عما تعرف من أخبار أولاً وقبل كل شيء .

ألوريس : ليس هناك من يفوقك فى معرفة الأخبار ، يارفلارت ، فجعبتك

لاتخلو من الأخبار مطلقا ؛ لأنك تجعل القديم منها جديدا قبل أن تتزود بغيره .

إيسمبرت : أما هو ، فإنه لايقل قدرة على الكذب عن أى جار من جيرانه ، مهما عظم شأنه ، وفى وسعه أن يحكى فى كل يوم من أيام الأسبوع بقدر مايستطيع أى واحد غيره فى أيام الآحاد .

رفلارت : أتريدون ـ إذن ـ أن أبدأ حديثى ؟

بايون : لاتكذب ، وكن حى الضمير .

رفلارت : أتريدون ، إذن أن أبدأ ؟

ألوريس : من العدل أن ننصت له ، مادمنا قد طلبنا منه أن يتكلم .

رفلارت : أتريدون إذن ، أن أبدأ حديثى ؟سأقول لكم ـ دون كذب ـ: إنه حدث فى الليلة الماضية حوالى الغروب أن انطلق السيد إيزنجران [1] للبحث عن صيد كعادته ، فابتدأ بالذهاب إلى حظيرتى ، وقفز السياج ، ولو لم يصادف أنى كنت مستيقظا لأخيط جلبابى ، لكان قد ذهب بخروف سمين فوق كفله

---

(١) اسم للذئب فى « قصة الثعلب » من قصص العصور الوسطى .

دون خوف ولا وجل . وهنا أيقظت بريبه [1] قائلا : هارو! هارو ! وبذلك استخلص روبان [2] من قبضته ، لسوء حظه ، وأصبح مطلق الحرية ، ولولا ذلك لكان قد أكله .

إيسمبرت : هل فكرت طويلا لتقص علينا هذه الحكايات الجميلة ؟

بليون : إذا لم تقص علينا ماهو خير من تلك ، كنت لاتعدل عندى فص ثوم .

ألوريس : أهذا كل مافى الأمر؟

رفلارت : لاتنبسوا بكلمة ، ستسمعون أحداثا مذهلة : بالأمس ذهبت بأكثر من ثلاثين حملا إلى بيت لحم ، لأبيعها هناك بمناسبة العيد ؛ ولاشك أن أى شخص لم يرأناسه ، فما عليه إلا أن يذهب إلى هناك ، وسيرى منهم العدد الكافى ، ولكن ماذا ؟ ألا تعرف ذلك ياإيسمبرت ؟ وهناك رأيت تختا كان يجلس على قمته أناس يلبسون ملابس من الكتان ، ويلتحفون بمعاطف جعلتهم يشبهون القردة ، وكانوا يكادون

---

(١) اسم الكلب .

(٢) اسم الخروف .

يتلاصقون فى جلستهم ، وراحوا ينشرون صحائف كبيرة ، ويستمدون للكتابة . لكتابة ماذا ؟ لا أدرى فى الحقيقة ، ومهما يكن من شىء ، فإن ذلك لا يعنينى .

إيسمبرت : اختصر .

رفلارت : لقد وصلت إلى النهاية ، أو كدت . وبينما كنت أنظر إلى أعلى ، جاءنى واحد من أولئك الذين لا أدرى من هم ، واحد من أولئك الذين يحبسون الناس .

هيا ! ساعدنى فى معرفة اسمه . . . من أولئك الذين يحملون عصيا من الفضة ، إنه . . . إنه . .

بليون : يريد أن يقول شرطيا يسوق الناس إلى السجن .

رفلارت : لا أكثر ولا أقل ، إنك على حق . ويمكن القول بأنهم قادونى بالقوة أمام « هذه البغال » الضخمة ، وهناك سألونى ـ فى لهجة كلها استعلاء ـ : « من أين أنت ؟ » وأجبت : « أنا من مدينتنا ، ولدى مايكفينى من البازلاء والشحم . » فسئلت ثانية : « ما اسمك ؟ » وأجبت : « رفلارت ، أهذا يعنيكم فى شىء ؟ » . قالوا : « كلا » ولكنهم ضحكوا من هذ الاسم ضحك المجانين ، وحينئذ وضعونى فى سجلاتهم ، وأطلقوا

سراحى دون شربة ماء .

ألوريس : ودون أكل ؟

رفلات : نعم ، وحياتى . وهذا أمر لايدعو إلى الضحك .

إيسمبرت : منذ ثمانية أيام سمعت أن السيد لاأدرى من . . . ماسمه ؟

بليون : الإمبراطور .

إيسمبرت : نعم ، إمبراطور روما . لقد قيل لى : إنه أمر أن يكتب فى أوراقه اسم كل رجل . فهل هو - ياترى - غبى إلى هذا الحد ؟

ألوريس : أن يكتب ؟ ولكن بأية مناسبة ؟ أيكون ذلك من أجل إشعال الحرب ؟

رفلارت : ربما ، أو لعله من أجل فرض ضريبة . لاتخف ! فلا شك أن الأمر سيكون ثقيلا علينا !

بليون : لا أدرى . فليكن مايكون ! إذا كان الناس سيقبلون من أقطار عديدة ، فإن ذلك سيسهل بيع خرافنا فى بيت لحم . وفى غيرها .

إيسمبرت : لقد آن الأوان لكى نذهب ونرتدى ملابسنا ، لأنه يجب علينا - أثناء الليل - أن نحرس القطيع ، كل من ناحيته .

ألوريس : أنا على تمام الاستعداد .

رفلارت : وأنا أيضا مستعد للسهر حتى الصباح .

بليون : ولما كنت أنا قد أحضرت تزلكى وقفازى والأزرار الكبيرة ، فإنى لن أخشى شيئا حين يتجمد من البرد كل شىء، حتى الضفادع.

إيسمبرت : إننا على خير مايرام ؛ كل منا فى مكانه ، و إذا رأى أحدنا الذئب ، فليناد !

ألوريس : لوجاء لكان فى مجيئه مسلاة لنا، فليحاول كل منا ألا يؤخذ على غرة !

وحينئذ يعلن الميلاد (٤٨٦٥ ـ ٤٩٩٩) ويتبع ذلك عبادةالملائكة (٥٠٠٠ — ٥٠٤٣) ، ثم منظر غنائى يقدم فيه يوسف ومريم شكرهما لله فى صورة نشيد يتبادلان غناءه بينهما (٥٠٤٤ — ٥١٦٢) ، ويحمل الملائكة النبأ السعيد إلى الرعاة ، كما يحمله النجم إلى الملائكة ، ويذهب هؤلاء وأولئك لتحية الملاك الذى ولد . ولكن هيرود يسمع هو الآخر بالنبأ الذى يتهدده ، وذلك عن طريق السحرة الذين سعوا إليه (٥١٦٣ — ٦٧٤٩) وأخيرا نرى رحيل الملوك السحرة الأربعة الذين لايرى المؤلف بأسا فى أن

يجعلهم يشربون (٦٨٤٧ — ٧٦٥٠) ، ثم المثول فى المعبد (٦٨٤٨ — ٧١٩٨)، ثم الفرار إلى مصر حيث تسقط الأصنام لدى رؤية الطفل (٧١٩٩ـ ٧٥١٥) ، ومذبحة البرآء (٧٥١٦ ــ ٧٨٥١) ، وانتحار هيرود الذى تحمله الشياطين إلى الجحيم (٧٨٥٢ - ٧٩٩٥) ، والعودة إلى فلسطين (٧٩٩٦ ـ ٨٠٣١)، والنقاش بين عيسى والفقهاء حيث ينتهز المؤلف الفرصة ليعرض مواهبه باعتباره رجل دين ، ولكن من حسن الحظ أن هذا النقاش لا يلبث أن ينقطع عن طريق إيراد مشهد أكثر منه درامية ، وهو مشهد القلق الذى يعترى مريم ويوسف فى بحثهما عن عيسى (٨٠٣٢ — ٩٩٣٦) . ويختم المؤلف اليوم الأول بتلخيص ماتقدم عرضه ، ودعوة الحضور إلى المجىء فى اليوم التالى لمتابعة المشاهدة (٩٩٣٧ ـ ٩٩٧٧) .

اليوم الثانى

تشتمل المقدمة على ملخص جديد لليوم الأول (٩٩٧٨ ـ ١٠٠٤٣). ثم يجىء يوحنا المعمدان ـ بدعوة من الممثل ـ فيلقى عظة فى موضوع « مارسوا التوبة » (١٠٠٤٤ ـ ١٠٢٠٤) . وبعد ذلك يجيب اليهود الذين جاءوا يسألون عن رسالته (١٠٢٠٥ ـ ١٠٢٨١) ، ويعمد عيسى (١٠٢٨٢ ـ ١٠٤٤٢) الذى يذهب إلى الصحراء حيث يحاول الشيطان عبثا أن يغريه

(١٠٤٤٣ — ١٠٧٣٢) . ويسجن يوحنا المعمدان بأمر هيرود الذى كان يوحنا قد جاء إليه يؤنبه على سوء سلوكه (١٠٧٣٣ ـ ١٠٨٥٠) . ويتبع ذلك اهتداء الحواريين (١٠٨٥١ ـ ١١١٢٣) ، وأفراح كنة (١١١٢٤ـ ١١٣٣٤) ، وطرد التجار من المعبد (١١٣٣٥ ـ ١١٤٣١)، واعتناق نيقوديموس الدين الجديد (١١٤٣٢ـ١١٥٤١) ، ومقابلة السامرية (١١٥٤٢ـ ١١٧٠٠) ، وبعث فتاة وطفل من الموت (١١٧٠١ ـ ١١٩٨٤) ، وقطع رأس يوحنا المعمدان (١١٩٨٥ـ١٢٢٢٨) ، وشفاء الكنعانية (١٢٢٢٩ ـ ١٢٣٦٠) ، والمشلول (١٢٣٦١ـ ١٢٥٧٦) ،وموعظة الجبل (١٢٥٧٧ ـ ١٠٨٢٨) ، ومضاعفة الخبز (١٢٨٢٩ـ ١٣٠٢٢) ، تغير هيئة المسيح فوق الجبل (١٣٠٢٣ ـ ١٣٣٥٢) ، مؤامرة المنافقين ، وحادث المرأة الزانية (١٣٣٥٣ـ ١٣٧٥٦) ، الفداء فى بيت سمعان ،وحكاية الجدلية (١٣٧٥٧ ـ ١٤٠٧٠) ، وإبراء الأكمه (١٤٠٧١ ـ ١٤٦٧٧) ، وإحياء العازر (١٤٦٧٧ ـ ١٥٠٩٩) .

إحياء لازار (العازر)

بروتومون : مرثا ، سيدتى المهيبة ،

إنى أرى عيسى مقبلا إلى هنا ،

ومعه جميع حوارييه :
فهلا خففت للقائه ،
فإن هذا أمر يعتبر دائما
علامة على عظيم الحب .

مارثا : سأذهب إذن دون انتظار ؛
لأنى أتوق إلى شخصه كثيرا .
عيسى ، سيدى الأكرم ،
إنى أعتقد بكل قلبى
أنك لو كنت هنا ،
لما مات أخى ؛
ولكن هناك أمراً يطمئننى ،
وهو أنى أعرف جيدا
أن كل ما تريد الحصول عليه
من الله تجاب إليه .

عيسى : سيبعث أخوك حيا ،
يا مارثا ، لا يكن عندك فى ذلك ريب .

مارثا : سيدى ، إن الرأى الشائع

أنه فى اليوم الآخر
سيبعث الجميع حقيقة ،
ولذلك أعتقد دون ريب
أنه لابد أن يبعث ؛
ولـكن ذلك لا يكفينى فى شىء .

عيسى : يجب أن تؤمنى بأنى الحياة
والبعث الحقيقى ؛
فكل من آمن بى دون تردد ،
ومات موتا جسمانيا ،
لم يخش مطلقا خطر الموت ،
الموت الدائم الأبدى .
فهل أنت تؤمنين بما سمعت ؟

مارثا : نعم ، يا مولاى الحبيب !
أومن به بكل قلبى
و بأنك المسيح ، ابن الله
الذى جئت إلى العالم من أجلنا .
(وهنا تعود إلى المذبح ، وتنادى مريم ، أختها .)
مجدلية ، يا أختى ، انهضى :

إنه عيسى ، سيدنا ، قد جاء ،
فهيا إليه .

المجدلية : مرحبا !
ياله من نبي مفعم بالفضيلة !
إنني فى غاية التطلع
للذهاب لرؤيته من فوري .

توبال : إلى أين تذهب مريم الآن
وقد انطلقت بهذه السرعة ؟

جدعون : إنها ذاهبة إلى قبر
لعزار – على ما أعتقد –
لكى تبكى أخاها
وتنثر عليه كل دموعها .

روبين : أن تلك السيدة الطيبة حزينة
مما رماها به القدر ،
و إذا لم ترزق شيئا من العزاء ،
فإن حزنها سيكون قاتلا .

سمعان (الأبرص) : أيها السادة الأجلاء ، هيا بنا إليها ،

لـكى نبعد عنها اليأس .

ايرون : سنحاول أن نعزيها ،
أتوسل إليـكم أن نسارع باتباعه ،
لأن القلب المفعم بالحزن
تصلحه الصحبة الطيبة .

(هنا ترتمى الجدلية على قدمى عيسى)

الجدلية : ها ! أيها السيد المفعم باللطف ،
كيف أقصيتنا ؟
كيف أبطأت عنا إلى هذا الحد ؟
كيف تتركنا هكذا ؟
لو أنك كنت هنا
لما مات أخى ؛
لأنك كنت عالجته جيداً
بمجرد كلمة منك .
إن حزنى عليه يـكاد يصيبنى بالجنون :
كلما مرت ذكراه بخاطرى .

عيسى : لا أستطيع منع نفسى من البكاء

ولا كيانى نفسه من الارتجاف
حينما أرى كل هؤلاء الرجال والنساء
يظهرون كل هذا الحزن على لعزار .

القديس برتلمى: إنهم جزعون عليه إلى حد يثير الإشفاق ،
وكل أصدقائه الأقربين .
يحملون عليه الحداد .

عيسى : أين وضعتموه ؟
أخبرونى ، فإنى أريد معرفة ذلك .

مؤاب : أيها المولى الحبيب ، هيا لتراه :
ها هو التابوت الذى يرقد فيه

عيسى : إن قلبى يرتجف إشفاقا ،
ودموعى تنهمر من عينى
دليلا على هذا الحزن :
هذا ما تقضى به الصداقة .

نبتالين : انظروا إلى ذلك الوجه الحليم ،
وجه عيسى وقد بللته الدموع .

مؤاب : إن هذه العبارات تدل

على أنه كان يحبه حبا خالصا .

توبال : لست أفهم معنى هذا الألم :
إن عيسى ، وقد أعاد البصر
إلى ذلك الذى قد ولد أعمى ،
ألم يكن فى وسعه أن يفعل مثل ذلك
فيحمى صديقه من الموت ،
ما دام يحبه إلى هذا الحد ؟

عيسى : اكشفوا لى هذا القبر :
ارفعوا الحجر من فوقه .

مارثا : ها ! سيدى ، إن ذلك لا بد أن يصيبهم بخيبة الأمل :
فهو يضطجع فيه منذ أربعة أيام ،
ومن ثم لا بد أن يكون بادى النتن ،
حتى لا يمكن لنفس أن تطيق ريحه .

عيسى : لقد أخبرتك منذ وقت طويل
أنك إن اعتقدت اعتقادا كاملا ،
أدركت مجد الله ،
وتجلى أمامك هذا المجد .

أبكوت : هيا ، إذن ، ليرفع الحجر ،
وليقدم كل منكم يد العون ، أيها السادة .

كليوس : مهما كانت الرائحة المنبعثة ،
لنرفع هذا الحجر ،
و بعد ذلك سنرى
مبلغ ماللذى عيسى من قدرة .
هيا ! ارفعوا !

ثوبال : ولكن هيا ! ارفعوا !
إنكم لا تفعلون أكثر من الثرثرة .

أبكوت : إنكم تضايقوننا .
بعراككم .

جدعون : أهو هذا ؟
هيا ! ارفعوا !

كليوس : ولكن هيا ارفعوا !
هيا ، بحق الله ، هيا !
لقد بدأ فى النزول .

أبكوت : ليست هذه طريقة الرفع .

هيا ! ارفعوا !

جدعون : هيا ارفعوه !

إنكم لا تفعلون غير الثرثرة .

كليوس : إنكم تضايقوننا بعراككم .

هنا ، إلىّ ! قليلا من المجهود ... هيا ! . .

وليبقَ — حيث هو —

كل من يخشى على نفسه القليل من الأذى .

توبال : انظروا ، إن التابوت مفتوح :

فافعل ما يحلو لك ، يا سيدى .

عيسى : أبى الذى فى السماء ، إنى صادق الرغبة

فى أن أتوسل إليك ، كما تعرف ،

لكى تستجيب لندائى ؛

ومع ذلك ، فإنى أعلم علم اليقين

أنك لا ترد لى أبداً أمراً

وأنك تسمع رجائى فى كل ما أريد ؛

إنى أريد أن أدعوك

من أجل الحاضرين الذين يروننى ،

لـكى يؤمنوا بـكل قواهم
بأنك بعثت بى إلى هذا العالم .
اخرج ، يالعزار ، أصدقائى الأجلاء ،
(بصوت عال)
إنى أريد ذلك وآمرك به
(فترة صمت)
(هنا العزار بكفنه)

لعزار : ما أعظم قدرتك ،
وما أسمى أفعالك ،
بوركت يابن الإله المجيد
الذى فى قبضته السموات والأرض !
حمدا لك وشكرا
على هذه المنة السامية
التى خصتنى بها طيبتك العذبة
حين أعدتنى إلى الحياة .

عيسى : خلصوه دون انتظار ،
ودعوه يذهب لحال سبيله .

يهيج الشياطين و يموجون بعد هذا البعث ، و يعتزم الشيطان كبيرهم

ـ الذى يحس أن سلطانه يفر منه ـ أن يغرى أمراء اليهود لـكى يعدموا عيسى (١٥١٠٠ ـ ١٥٢٠٥) . فيجتمع هؤلاء الأمراء لدى قيافا فى الوقت الذى تتوسل فيه العذراء إلى عيسى لـكى يفر (١٥٢٠٦ -- ١٥٧٤٣) . ويأوى عيسى إلى بيت لحم لدى لعزار وأخته (١٥٧٤٤ ـــ ١٥٩٤٢) ويتلو ذلك الغداء لدى سمعان حيث يوطد يهوذا العزم ـــ بعد أن أزرى به عيسى أمام الجدلية ـ على خيانته (١٥٩٤٣ـــ ١٦٠٤٦) ، وعودة النصر إلى بيت المقدس (١٦٠٤٧ ـ ١٦٣٨٢) .

وتعبر السيدة العذراء من جديد عن شكاياتها التى تنتهى بالخضوع لإرادة ابنها (١٦٣٨٣ ـ ١٦٦٣٨) . ويبشر عيسى بالمعبد فى حضرة قيافا وحنان اللذين يسعيان إلى هلاكه بأسئلتهما الخبيثة (١٦٦٣٩ ـــ ١٧٢٨٦) . وفى أثناء عودة عيسى إلى بيت عنيا (١٧٢٨٧ ـ ١٧٣٢٢) يعقد الشياطين مؤتمرا، ويخون يهوذا سيده تحت إغراء الشيطان (١٧٣٢٣ ـ ١٧٥٩٨) وبعد ذلك يتوالى العشاء الأخير (١٧٥٩٩ ـ ١٨٥٣٢) ، وإعدادات القبض (١٨٥٣٣ ـ ١٨٦٧٢) ، والأسى فى بستان الزيتون (١٨٦٧٣ ـ ١٩٠١٥) ، والقبض على عيسى ، وفرار الحواريين ١٩٠١٦ ـ ١٩٣٣٩) ، واستجواب عيسى على يد حنان ، وإنكار بطرس(١٩٣٤٠ ـ ١٩٧١٩) . وأخيرا نرانا أمام مشهد مؤثر طنان حيث نشهد عيسى صلمع

يعانى إهانات حراسه ، « الشرطيين » رولارت ودنتارت وجاديفر . ويختم المؤلف اليوم الثانى بدعوة المتفرجين إلى العودة فى اليوم التالى .

اليوم الثالث

مقدمة (١٩٩٤٧ - ٢٠١٤٤)

سنواصل الكلام فى موضوعنا الطيب المفيد لجميع القلوب العامرة بالتقوى ، ولذا سنعالج ظروف الآلام الشديدة القاسية التى كانت تمنـــا لخلاصنا . ويجب علينا - من أجل خلاصنا - أن يعمد كل منا ، البداية ، إلى تحيته بخشوع ، وأن نسارع إلى القول بكل خضوع : أحييا يامريم Ave Maria .

وبعد أن تنتهى هذه التحية الطيبة المباركة ، أتوسل إليكم بكل تواضع - أيها السادة - فى أن تلوذوا بالصمت ، وأن تعدوا نفوسكم لتصور الأسى والانعطاف والحب الكامل التى تقودنا إليها هذه الآلام وتوجد طبيعتنا البشرية ؛ وفكروا فى أن من يعنى التعلم من هذا العمل يجنى منه ثمارا عظيمة ، وأنه لايوجد فى هذا العالم تاريخ يعدله فى الخصب أو الإثمار ، أو يساويه فى ارشاد القلب إلى الخير الذى يجب عليه أن يتجه إليه . إن من يحسن الإصغاء

إليه، ويحيد فهمه لايتأتى له مطلقا أن يريد عمل الشر ، بل يعتبر أن كل متعة دنيوية متعة سيئة خداعة زائلة ، ولا توجد خصومة بالنسبة لديه إلا احتملها بصبر ، مهما كانت شدتها ؛ لأنه إذا تصور الكارثة التى حلت به أدركه القنوط ، ولكنه حين يفكر أن ابن الله السعيد قد تألم كثيراً ، وعانى كثيرا من أجل تطهيرنا من الأدران ، يدرك أن مايعانى هو منه لايعتبر شيئا بالنسبة للحمل الذى أراد عيسى أن يضطلع به من أجل الإنسان .

وهكذا يراه وقد ضبط إرادته تبعا لهذه المرآة التى يجب على كل قلب أن ينظر فيها برفق لكى يرق فيها آلامه ، وقد آلينا على أنفسنا ـ لكى نكون متواضعين فى انتهاج هذا المسلك ـ أن نضع أمام أبصاركم هذه المرآة السماوية على خير وجه تجود به الطاقة ، وبصورة محسوسة ، وذلك تبعا للشخصيات . فانظروا جيدا تصبحوا من الحكماء ؛ إن كل إنسان يلمح فيها صورته ، ومن نظر إلى نفسه جيدا ، رأى نفسه جيدا . وفقنا الله فى النظر فيها لكى نربح عن طريقها رؤية الجوهر الإلهى الخالد الذى لانهاية لحكمه بعد رؤية هذه الحياة الفانية (الأبيات ١٩٩٤٧ — ٢٠٠٠٥) ،

(وقد رأينا أن نستعيض عن تحليل هذا اليوم الثالث بترجمة الملخص الذى تعرضه مقدمة اليوم الرابع (٢٧٤٩٥ ـ ٢٧٥٦٦) مع الإشارة إلى

الأبيات بين أقواس من طبعة باريس ـ رينو ، وذلك تمشيا مع الخطة التي سرنا عليها حتى الآن) .

لقد بدأنا ـ على مايبدو لي ـ بأن بينا كيف أن حنان ، ذلك الكاذب الغدار ، قد عامل عيسى الرقيق بغلظة وفظاظة طوال الليل دون أن يترك له لحظة هدوء واحدة (٢٠١٤٥ ــ ٢٠٢٣٣) ، وكيف أنه ـ لكي يصل إلى أغراضه ـ قد قاده في مطلع النهار لدى قيافا (٢٠٢٣٤ ــ ٢٠٣٢٨) . وقد ترك هنالك حيث تجددت آلامه ، لأنه استجوب وسخر منه وضرب وأهين ، وتغطى وجهه الجميل بالبصاق ، واتهم بشهادة الزور ، وفي النهاية أرسل أمام بيلاتوس لكي يعدم تحت أشد أنواع القسر (٢٠٣٢٩ ـ ٢١١١٩) . وقد رأيتم بعد ذلك ندم يهوذا الذي أساء التصرف ، حينما شنق نفسه من شدة القنوط (٢١١٢١ ـ ٢١١٨١ و ـ ٢١٦٠٤ ـ ٢٢١٧٦) . ثم استطعتم أن تروا كيف أن بيلاتوس قد أجل موت المبارك عيسى إلى أمد بعيد رغم صياح اليهود أو اتهاماتهم ، أولئك الذين لم يكفوا عن المطالبة بموته (٢١١٨٢ ـ ٢١٦٠٣ ؛ ٢٢١٧٧ ـ ٢٢٧١٧) . بعد ذلك أمر بيلاتوس ثلاثة أو أربعة من عتاة الجنود الأشرار بأن يضربوه إرضاء لليهود ، ولكن لم يكن ذلك إلا ليزيد من صخبهم . ولكنكم كنتم قد رأيتم قبل ذلك

كيف أن الصلح قد تم بين بيلاتوس وهيرود على يد عيسى (٢٢٦١٨ - ٢٣٣٦٩) . ورأيتم أيضا خوف زوجة بيلاتوس وقلقهامن أن يصدر زوجها ذلك الحكم الذى انفطر له قلباهما فيما بعد (٢٣٢٧٠-٢٣٥٢٩) . و بعد كل هذه التفاصيل تمسك اليهود كل التمسك بمعارضتهم ، وأصدروا من ضروب التهديد ماجعل بيلاتوس يصدر حكمه عليه ، ولكنه قد اضطر اضطرارا إلى هذا المسلك ، وذلك لكى يتخلص من الموقف (٢٣٥٣٠ - ٢٣٦٥٥) . ثم رأيتموه وهو يحمل الصليب و يساق إلى الموت بين لصين حقيرين(٢٣٦٥٦ - ٢٣٩٩٥) . وسمعتم النساء الصالحات يشكون و يتوجعن (٢٣٩٩٦ - ٢٤١٠٩)، وسمعتم أمه الوديعة تنفث أساها ، وأصدقاءه ينتحبون أشد انتحاب على فقدان سيدهم الذى تولهت قلوبهم عليه (٢٤١١٠-٢٤٤٤٩) .وحينئذ أرقد ابن الله المجيد على الصليب بصورة محزنة حيث عانى السخرية المرة، والعار الفادح ، والتهكم الكالح ، ثم الموت الأليم فى نهاية الأمر تحت بصر أمه الوديعة العزيزة (٢٤٤٥٠-٢٦٧٠٧) ، ورأيتم الإنزال من فوق الصليب ، وجسده حين قام يوسف ونيقوميدوس بدفنه ، وقد بدا عليهما التأثر الحقيقى . (٢٦٧٠٨-٢٧٢٣٧) .وحينئذ قام اليهود بإغلاق القبر عليه بالملاط، وأقاموا الحرس من حوله خوفا من أن يقبل أصدقاؤه المجتمعون ويخطفونه فى ظلام الليل ، وقد حاول كل جندى أن يقوم بدوره بكل صرامة ، وهنا توقف تمثيلنا (٢٧٢٣٨ - ١٧٤٥١) .

يهوذا : ها هو ذا سيدى يساق إلى هنا ، و يعامل معاملة زرية؛ أعتقد أن قضيته ستنتهى بصورة يرثى لها ، وأنها ستتمخض عن موته: ليس هناك من علاج لموقفه . آه ، أيها القاتل الشرير ، ماذا فعلت؟ أيها القلب الغادر ، ماذا دبرت ؟ على من جنيت ؟ لقد ارتكبت جريمة كبيرة لن يغفر لك ذنبها ، ولن يستطيع البرىء منها خلاصا . لقد ارتكبت أشنع خطيئة يمكن لمين أن تتأماها، ارتكبتها بقلبى الشرير الرهيب الذى لم يرد قط أن يتصور الخير . لقد أوقعت البرىء العادل المسالم بالاحتيال والخديعة . ليس فى الإمكان - فيما أعتقد - أن أنال الصفح . عيسى ، أيها الرجل القديس العادل المتسامح الذى اجتمعت فيه كل ضروب الخير ، لقد كنت فيما مضى من قطيعك ، وأخذتنى معك ، أما الآن فقد باعك قلبى الشرير الغافل بمبلغ تافه من المال ، وهذه غلطة كبرى . أيها المال الشرير الملعون ، أفى وسع إنسان أن يفيك حقك من اللعنة ، وأنت سبب الحزن والغضب ، وفيك كل مايدعو إلى اللعنة ؟ ملعون عبد السوء الذى استخرجك من الأرض ، لأنك أنت سبب ما انقض على من ألم لن يفارقنى . وأنت ياسيدى

المذهب الحق ، لقد كنت من رجال مدرستك فيما مضى : والطاعة العليا ليست مما يصح النفور منه ، ولقد أسأت استعمال ذلك ، فلست أهــلا له ؛ إذ أنى بخيانتى الإجرامية قد انفصلت عنه ، وأصبحت حزينا كسيف البال . آه ! أيتها القبلة المغرضة الحارة . أنت التى كنت أشد إحراقا من قضيب الحديد الملتهب ، أنت التى تشعلين قلوب البشر وتسعرينها فى شرر الجحيم ، بأى حماس استوليت على إرادتى لتقلبيها ؟ دفعتنى إلى حمى الجحيم لأظل فيه إلى أبد الآبدين . إن الرعب يستولى على من امتلاكك أيها المال الخداع الحقير : لقد دفعتنى إلى ارتــكاب عمل شيطانى لن أبرأ من تبعته ، لذلك لأردنك إلى من أخذتك منهم ، إلى أولئك الذين أعطونى أدوات ضياعى .

(يهوذا يقذف بالمال إلى اليهود)

أيها السادة ، خذوا مالــكم ، لقد أثمت ، وأأسفاه ! لقــد أثمت وارتــكبت جريمة كبرى هى سبب الخطر المحدق بى .

حنان : وما شأننا ؟

قيافا . ما شأننا ؟ إذا كنت قد ارتــكبت غلطة ، بل حماقة ، فعليك أن ...

تتجرعها . إن فعلتك لاتعود إلا إليك ، فتجرعها ، هذا لايعنينى وليس لنا أن نهتم بك .

يهوذ : آه ! أيها الناس سيئو النية ، لقد ألقيت بين أيديكم بأزكى دم رآه البشر ، وإذا كان لابد لى أن أتجرع الموت من أجله ؛ فهذه غلطتى .

حنان : نرجو لك الخير ، خلص نفسك بأحسن ماتستطيع ، فليس لك لدينا من عزاء غير ذلك ؛ وإذا كنت قد عملت خيرا ، فمن حسن حظك ، أما إذا كنت قد عملت شرا ؛ فليكن الشر من نصيبك ، ولتبؤ بالعار .

يهوذا : وأسفاه ! ياله من جواب قاس ! إن أولئك الذين عملت على إرضائهم مبتهجون لحزنى ، ولا يهتمون بآلامى . هذه هى نهاية الخيانة ؛ إذا سقط الخائن ضحك من شقوته كل الناس ؛ وخيانتى ستنتهى شر نهاية ، وسينتهى بى الأمر إلى الوقوع فى شر حال . سأغادر هذا المكان ؛ لأنى أشعر فيه بنوع من الملل جدير بصدع قلبى حتى الانفجار إذا استمررت فى البقاء هنا . سأذهب لابحث عن مرعى فى مكان آخر .

• لقد سئمت روحى الحياة ، وراح جسمى ينوح عليها بأكمله حتى لم

يعد لها محيص عن التخلص منه ، وأصبحت تبحث عن وسائل هذا التخلص . إن تعاملها الإنسانى جدا الذى كان مشربا بالحب فيما مضى، تحول الآن إلى تمرد و بكاء ونحيب ، ذلك أن الروح قد أبغضت جسمها كما أبغض الجسم الروح ، وهما الآن متفقان على الفراق بصورة قبيحة زرية وسط الدموع والخزى ، و بين ضروب العار . ولم يبق الآن إلا العثور على من يقوم بالتفريق بينهما ، ولو وجدت روحى من يساعدها على ذلك لكانت قد رحلت . فأين ستبحثين ، ياروحى ؟ ليس فى وسعك إلا أن تنادى كل شياطين الجحيم الملعونين ، أعداء بنى آدم ؛ لأنك إن لجأت إليهم ، فلا شك أنهم سيأتون لنجدتك . ليس أمامك إلا أن تستدعيهم بتكرار النداء ، وهذه هى الصيغة : أيهـــا القطيع المروع الكريه ، أيتها الشياطين المحبوسة فى قاع الهاوية ، أيتها الأرواح الخداعة المحرومة من كل مجد ، أيها الجنس الملعون الحقير المحكوم عليه بالعقاب الأبدى الذى لانهاية له بالنسبة لهم ، تعالوا ، انطلقوا ! تعالوا ، أيها الشياطين امثلوا أمامى ، أقبلوا لمساعدة عبدكم الذى يناديكم و يدعوكم بأعلى صراخه ! تعالوا لتقتلوا مادته الفانية ، لتحطموها وتبددوها ، أو على الأقل ، لكى تقدموا لى نصيحة تساعدنى على التخلص منها .

أبليس : — أيها الشياطين ، أنصتوا : سألقى عليكم خطابا رضيا فى بضع كلمات . لقد سمعت ـ على ما يبدو لى ـ صوت عبدنا يهودا الشرير الخائن الذى راح فى غمرة الروع الذى يرعى بدنه يدعو إليه الموت بصوت عال ، ولا أحد يجيبه .. فأخذ ينادينا الواحد تلو الآخر . ونحن لسنا من البعد عنه بدرجة تمنعنا من أن نخف لمعونته ، يجب أن نعينه بقدر ما نستطيع . أيها القنوط ، إنك ابنى ونسلى الحبيب . استجب لعبدى الذى يدعونا جميعا بكل قواه ، امنحه ما ينبغى له ، بالطريقة التى تعرفها ، أنت يا من اعتدت أن تجلبهم هكذا قطعانا .

القنوط : — أبى إبليس ، إذ لم أنجح فى ذلك ، فإنى أرضى بفقدان مكانى .

(فترة صمت)

القنوط : — أيها الشرير ، ماذا تريد منى أن أفعل ، إلى أى شاطىء تريد أن ترسو ؟

يهوذا : — لا أدرى : إن عينى لم تعودا تجرؤان على النظر إلى السماء .

القنوط : إذا أردت أن تسأل عن اسمى ، فإنك ستعرفه من فورك .

يهوذا : من أين أقبلت ؟

القنوط : من أعمق أعماق الجحيم

يهوذا : ما اسمك ؟

القنوط : القنوط ؟!.

يهوذا : يا لرهبة الانتقام ، يا لشناعة الخطر . اقترب ، وأنجدنى ، إذا كان فى مقدور الموت أن يخفف آلامى .

القنوط : نعم ، على أحسن ما يرام .

يهوذا : تقدم إذن ، وطالب بأيامى اللعينة .

القنوط : اطمئن . فإنى على استعداد لاختزال عذابك .

يهوذا : قل لى ، أيها القنوط ، قل لى ، أيها الوحش الضارى : أيبدو لك أن آلامى تبلغ من القوة بحيث تغمر قلبي فى هذه المرارة ؟

القنوط : من اليسير عليك أن تدرك أنك لن تستطيع الحصول على غفران لخطيئتك .

يهوذا : وا أسفاه ! إن سيدى طيب إلى أقصى حـد ، وهو جد ميال إلى العفو ! فلو ذهبت إليه أطلب الغفران ، ألا يعفو عنى ؟

القنوط : كلا ، لأن الذى يدس السم ، لا يلقى على فعلته جزاء غير الموت.

يهوذا : لم أسمعه يتكلم قط إلا عن العفو ، العفو . وهذه علامة على أنه يحب البذل .

القنوط : من المستحيل عليه أن يصفح عنك. ليس لخائن أى حق فى الصفح .

يهوذا : وا أسفاه ! هذا حق ، لقد خنته وعصيت أمره ، ولكنه معدن الشفقة .

القنوط : إنه يبغضك بغضا يجعلك لا تجرؤ على المثول بين يديه خجلا .

يهوذا : أفهم من كلامك أنه لن يستطيع الصفح عنى مطلقا ، مع أنه يستحوذ على قدرة إلهية .

القنوط : أنا أعترف بأنه يستطيع ذلك ، ولكنه لن يقبله .

يهوذا : ولماذا ؟

القنوط : لأنك لست له أهلا .

يهوذا : أما أنا ، فإنى أهل لذلك ، وفى وسعى أن أدافع عن رأيى ؛ لأنه كثيرا ما ذكر أنه إنما جاء من أجل الآثمين ؛ فإذا كان قد نزل من أجل الآثمين وعرف أنى أثمت، وما دام قد بسط غفرانه على الجميع ، فلا بد أن أنال ـ أنا أيضا ـ هذا الغفران ، وليس فى مقدوره أن يفعل غير ذلك .

القنوط : سأفترض جدلا وجاهة حجتك ، ولكن هناك فرقا بين الخطايا . بعضها صغير و بعضها كبير ، وليس منها ماهو أكبر

من خطيئتك ، لأنها تمس شخصه بصورة مباشرة . ومن ثم إذا كان يصنع الخير للآخرين ، فإن ذلك لايغير شيئا من حالتك .

يهوذا : إذا اتجهت نفسى نحو العذراء الوديعة ، مريم ، وشرحت لها ما يعتريها من آلام ، فإنى أعتقد ـ على العكس من ذلك ـ أنها تحصل لى على عفو ابنها ، لأنها أمه وحبيبته ، وماتطلبه الأم لن يرفضه الابن .

القنوط : لو فعلت ذلك لكانت هذه أكبر حماقة تستطيع ارتكابها لأنك أسأت معاملة الابن والأم . وجرح الأم لايزال ينزف دما ، فإذا توسلت إليها ألف مرة ، ماأرضيتها : لأن الجرح الذى يصيب جسم الابن يحسه قلب الأم .

يهوذا : لا رأى إذن إلا أن أتجرع غصص الموت ، ولكنى ـ مع ذلك ـ قد اعترفت بذنبى حين قلت لقد أخطأت ، وبعد ذلك قمت بما يرضى حين رددت النقود ، ثم شعرت بندم كاد ينفجر له قلبى ؟

القنوط : لقد أدليت بهذا الاعتراف دون طهارة الطوية ، ورددت المال حقا ولكن ليس إلى الشخص المعتدى عليه ، وقد أجتهدت فى

الشعور بالندم ، ولكن ذلك لم يكن إلا نتيجة لعارك المركز . لذلك كان كل ماقلته هباء في هباء ، ولا ثمرة له .

يهوذا : هل أصبحت روحي – إذن – من نصيب الشيطان، ومقضيا عليا بالخسران !

القنوط : بالضرورة .

يهوذا : مقضى على بالهاوية الأبدية ؟أليس من وسيلة لإصلاح ذلك أيها السعار الوحيد الرهيب المؤبد ؟ أيها السعار الوحيد الذي يفوق في جنونه ذلك السعار الذي يعذبني، أيها الموت ، أيها الموت ،لماذا تتركني معلقا بين يديك ؟ هيا ، عجل بضربي بسهمك ، لقد تبت والقنوط يحرقني على نار بطيئة .

القنوط : ليس له أن يضربك بسهمه الآن ؛ رتب أمورك ؛ ثم اذهب واشنق نفسك : وهذا حبل احتفظت به من أجلك .

يهوذا : يالتعاسي ! أموت هكذا مشنوقا بحبل دون أمل في أي عزاء؟! يااليأس ؛ وأسفاه ؟ هذا هو الفخ الذي يريد الموت أن يوقعني فيه . إن الآلام بجميع صورها تبحث عني جماعة. إنك لمذنب أيها الطمع الذي اخترت لي ، وفتحت أمامي تلك الطرق التي

أعانى فى نهايتها كل هذا التمزق . وا أسفاه ! ماذا يجب أن أفعل ؟ أينبغى لى أن أقتل نفسى ؟ أهذا الموت ضرورى لى ؟ أأنت عدوى ، أيتها الشفقة التى كان ينبغى لها أن تعزينى قبل موتى ؟

القنوط : إن الصياح وطلب الرحمة لاجدوى لهما : اذهب واقتل نفسك . يجب أن تفعل ذلك طوعا وعن طيب خاطر ، وأن تلوذ بالصمت .

يهوذا : كيف كيف ؟

القنوط : لا تقلق خاطرك ، سأريك الوسائل انظر إلى جعبتى ، ولاحظ مقدار ما معى من عدد تساعدنى فى مهنتى . معى مقصى وسكينى الكبير ، وليس هناك آلة من آلاتى إلا وهى جيدة وجميلة وقاطعة ، ومن أحسن الأصناف ، وصالحة لقطع الرقبة بضربة واحدة . وإذا أردت خناجرا أو حرابا ، فلدى منها أصناف عديدة . خذ هذا وأطعن به بطنك بكل قواك ؛ وحينئذ لن تشعر إلا وقد تخلصت من نفسك ، وها هى ذى الحبال والمناطق التى أعددتها للزملاء لكى يشنقوا أنفسهم بسرعة . اختر ، لا تتردد كثيرا ، اطرق الحديد ولما يزل حارا .

يهوذا : إذا لم يكون لى مفر من القنوط ، إذا لم يكن لى بد من فقدان الأمل ، إذا كانت تنقصنى موهبة الأمل ، فلست فى حاجة إلى من يقنعنى بشجاعتى . هيا ، أسرع أيها القنوط ، لقد آن الآوان لكى تهتم بأمر موتى .

القنوط : أى موت تفضل ؟

يهوذا : أطلب إليك أن تشنقنى .

القنوط : لكيلا تنتظر طويلا ، خذ منى هذا الحبل . وستشنق نفسك بنفسك ، فهذا خير ما يمكنك أن تفعله . وسأساعدك طائعا مختارا ؛ لكى أخلصك بأسرع ما يمكن .

يهوذا : إذن ! هيا ! أريد السرعة ، وإلا انفجر قلبي من السعار . فى أى مشنقة سأشنق نفسى ؟ ما قولك ، أيها القنوط ؟

القنوط : هذه صفصافة عجوز عوجاء عريضة الأغصان فيها من القوة ما يكفى لحملك . فتسلقها ، وسأساعدك .

يهوذا : سأتعلق فى هذه الصفصافة وأشنق نفسى ، ولكنى سأبدأ بصنع آخية لكيلا أنتظر الموت طويلا .

القنوط : أهى جيدة الصنع ؟

يهوذا : عقدة مغزلية فيها من القوة ما يمكنها من حمل الوزن . أيتها الشياطين الكريهة البشعة ، أيتها الزمرة المطرودة من رحمة الله ، أيتها الطائفة المرذولة الملعونة فى الجحيم إلى الأبد ، هــذه هى كل وصيتى . فى اللهيب الأبدى سأترك لكم جسمى وروحى ، دون أى أمل فى الفرار .

بريخ : سأكون الموثق الذى يسجل هــذه الوصية النبيلة ، حتى لا أخدع فيها بعد . وها هو ذا الورق جاهزا .

يهوذا : أنت ياحمل السعار الثقيل الذى يفعم قلبى ، أيتحتم على ـ منذ الآن ـ أن أحملك كلا أبديا من الشقاء والتعاسة ؟ يا قلعة اليأس العالية ، المحشودة بالصرخات الضارعة المغطاة بصيحات البكاء المسعورة ، المحوطة بسور رفيع من صنع يد الشيطان ، التى ليست حفرها إلا آثارا عميقة ، إلا هوات لا شاطىء لها ولا قاع ، وليس فى أبهائها من زخارف ، ـ وا أسفاه ـ إلا صور بحيرات الشياطين ، انتظرينى أيتها القلعة ، أيتها الدار السحيقة المروعة . ففيك سيــــكون مستقرى . انتظرينى ، أيتها الهاوية المخيفة ، لأنى سأموت موتا أليما لا ينتهى ، فى حومة الكبريت المصهور . انتظرنى

أيها السجن الصارم، أيها الأتون الأحمر من وهج نار حامية، أيتها الحفرة المليئة بالأفاعى ، أيها النهر الجارى بالوحل النتن. سآتى إليك مثقلا بالآلام والهموم ، وسأغوص فى حمئك . ولكن قبل أن أختم ندائى أتجه إليك ، أيها الشيطان الذى أطعته ، فأطلب إليك بصوت عال أن أودعك كلا جسمى وروحى . (يشهق نهدة) .

بريخ : أيها القنوط ، ياأخى العزيز ، اهو قد مات ؟

القنوط : إنى أنتظر حتى أشق قلبه وأمزقه ، و بعد ذلك سينتهى كل شيء بغاية السرعة : وسيئول أمره إلى ما يؤول إليه . والآن ، اذهب (١) .

بريخ : لا أدرى ماذا هنالك لست أسمعه يتنفس أو يسعل ، ومع ذلك فإن روحه لاتستطيع الخروج . ماذا يمسكها ؟

القنوط : هيا ! إنى أعرف السبب . ذلك أن هذا المعتوه ، حين نكث عهده أقبل على سيده ، وطبع عليه قبلة ، لذلك لاتستطيع الروح ـ ولا يصح لها ـ أن تخرج من هذا الفم

---

(١) هذه الجملة مكتوبة بالإيطالية و الأصل .

الشرير الذى مس شيئا له تلك الدرجة من القداسة .

بريخ : يجب شق بطنه وفتحها وإخراج أحشائه كلها ، حتى يتأتى له أن يموت بسهولة . أتوافق على ذلك ياأخى ؟

القنوط : أوافق عليه . ولنذهب ، فقد حصلت على فريستنا . لم يبق أمامنا إلا أن ننصرف .

مرثية

· السيدة العذراء (وعيسى بين ذراعيها) :—

عيسى ، ابنى العزيز عيسى ،
ياحبيبى وكل مالى فى الحياة
وليس لى فيها سواه ،
أنت الآن أكثر
حياة بالنسبة لأمك الحبيبة ،
يا كل مالى ، يانورى الكامل ،
يابهجتى الأولى والأخيرة ،
واأسفاه ! أى محيا ،
وأى صورة

تملأ قلبي باليأس ،

حين فقدت كل ما يعزيني ،

حين فقدت حبيبي ،ابني،انشرح صدري

الذى أضمه ميتا بين يدى ؟

أيها الموت الخداع ،

كيف واتتك الجرأة

على اغتصاب ابنى وحده

دون أن تلحقنى به ؟

يا لشرك ! !

يا لخديعتك

حينما انقلبت على .

ابنى ، وثمرة حشاى ! !

لقد تركتنى يائسة ،

مقصاة .

محرومة

من كل خير يستطيع الوصول إلى .

وا أسفاه ! يا ذكراى الحلوة !
فيما مضى كانت عادتى أن أحملك
بمتعة ،
وبسرور ،
فى أيام صباك الغض !
بين ذراعى ، وكلى حبور ،
وأنظر إلى محياك العذب
وإلى تواضعك ،
وإلى بساطتك
التى كانت غاية فى الجمال ،
وكنت أقبلك ألف مرة ،
وكنت كلما قبلتك ابتهج قلبى ،
وكنت أرعاك ،
وكنت أحرسك ،
بأقصى عناية ـ يشهد الله ـ
على النحو الذى لا تستطيع الأم أكثر منه ،
وا أسفاه ! لم تصبح هذه القبلات كما كانت من قبل ،

ياملك السماوات ،

حين ترى عيناى

أنك قدمت موتاً مخجلا ،

موتاً شنيعاً أليماً ،

وأن جسدك المقدس الغالى ،

المفعم بالفضيلة ،

المستدر للرحمة ،

قد مزق فى كل مكان وكل ناحية .

اليوم الرابع

يقتصر اليوم الرابع على حكاية البعث . المقدمة (٢٧٤٥٢ – ٢٧٨٣٠) . جنود الرومان يقومون بحراسة القبر (٢٧٦٣١ – ٢٧٧٣٧) . اليهود يعملون على القبض على يوسف الرامى و إيداعه السجن (٢٧٧٣٨ – ٢٨٣٨٩) . النساء الصالحات يشترين العطور لتعطير عيسى (٢٨٣٩٠ – ٢٨٤٦٥) . والحواريون يبكون موت أستاذهم (٢٨٤٦٦ – ٢٨٧٨١) . بالرغم من الحراس ، و بالرغم من الجحيم ، عيسى يبعث حيا (٢٨٧٨٢ – ٢٩١١١) ، ثم يظهر أمام أمه (٢٩١١٢ – ٢٦١٠٠) . الملائكة يعلنون البعث للنساء الثلاث اللائى يحملن اسم مريم (٢٩١٨١ – ٢٩٢٩٨) ، وجنود الرومان

يستيقظون فيعلنون البعث (٢٩٢٦٩ ـ ٢٩٤٠٤) ؛ وبعد ذلك نرى مشاهد متفرقة يظهر فيها عيسى لحوارييه الذين تفرقوا بسبب المؤامرات الناشبة بين اليهود (٢٩٤٠٥ ـ ٣٢٧٨٤) . ثم الصعود إلى السماء مصحوبا بالابتهاج العام ، وسخط الجحيم (٣٢٧٨٤ ـ ٣٣٤٩١) ، ونزول الروح القدس على الحواريين (٣٣٤٩٢ ـ ٣٤٠٨٧) ، و ينتهى السر بمغزى تستأنف فيه المناقشة التى دارت فى الفردوس بين سيداتها الخمس : الحكمة ، والرحمة ، والحقيقة ، والعدالة ، والسلم ، فتتعانق كل من الرحمة والحقيقة ، والسلم والعدالة ، ويعود الممثل لآخر مرة من أجل الخاتمة النهائية والكلية (٣٤٥٤٨ ـ ٣٤٥٧٤) :

لكى نختتم سرنا هذا
فى حبور وشرف رفيع ،
ولكى تظهر نهايته على خير ماتكون ،
يجب أن نوجه الشكر لله الكبير
وننشد : لك الحمد يا ألله » .

أحكام حول تمثيلية آدم

تصوغ هذه القصيدة هبوط آدم وحواء ، وموت هابيل ، وتتابع المبشرين بظهور المسيح صياغة مسرحية . ومما يلاحظ فيها بوجه خاص : الطريقة التى اتبعها المؤلف فى معالجة الموضوع الخاص بالإغراء . والحقيقة أن حواره ينقصه بعض البسط ؛ فقد اكتفى المؤلف بمائة بيت ، بمائة بيت صغير ذى ثمانية مقاطع ، لكى يصور نجاح الشيطان فى إغراء حواء بعد أن أقصاه آدم عنه ، ثم فى تصوير تغلب حواء بدورها على آدم .

وبالرغم من هذه السرعة المفرطة للحدث ، وبالرغم من قصر المدة التى منحت للمثلين من أجل أن يغيروا مشاعرهم ، يجب علينا أن نعترف بأن نفسيتهم تتسم اتساما قويا جدا بطابع الحقيقة ، أما المحادثة بين مالان[1] وحواء ، فقد أديرت بمهارة وذكاء كبيرين ؛ إذ يبدأ مالان باستهجان خشونة آدم وغلظته ، ثم يظهر رثاءه للمرأة فى خضوعها لهذا الجلف ، وهى تلك المخلوقة الساحرة الحنون النضرة ؛ وتدافع عنه حواء فى بداية الأمر ، ثم تضعف شيئا فشيئا إلى أن تستسلم للاغراء فى نهاية الأمر . « أ ـ فارال » .

التاريخ المصور للأدب الفرنسى ، الصادر تحت إشراف الأستاذين : ج بيديه ، وب . آزار (المجلد الأول ، ص ٦٢) .

---

(١) الخبيث

تعتبر تمثيلية آدم أقدم دراما حررت كلها باللغة الفرنسية ، وقد كتبت في إقليم « النورمانيدية » في جنوب انجلترة خلال السنين الأخيرة من القرن الثاني عشر ، ولابد أن تكون قد مثلت في دير ، لا في دهليز كنيسة، كما يذكر في كثير من الأحيان ، لأن تعقد الإخراج فيها يتطلب مكانا رحبا بعض الشيء . والمسرحية لا تكون كلا واحدا ، وإنما هي سلسلة متتابعة من المشاهد التي لا يربط بينها إلا أنها تدور كلها حول التجسد . وتفتتح المناظر الأولى منها بآية من الكتاب المقدس تنطوى على مادتها ، ولكن هذه المناظر ليست تسلسلا أمينا لما في الآية .

ولا ينتهى الكلام في مقتل هابيل (أول الصالحين والذى يعتبره علماء اللاهوت صورة للمخلص) حتى يتلوه ـ دون مرحلة انتقال ـ مشهد تتابع الأنبياء معلنين ظهور عيسى المسيح ، وهذا المشهد كله مستجد من موعظة للقديس «أوغسطين» حيث يبدأ المؤلف بذكر كلماتها بنصها ، ثم يعلق عليها باللغة الفرنسية ؛ وتتكون الخاتمة من النبوءة التي تصف علامات الساعة .

تعتبر هذه الدرامة ـ التي أصاب نصها كثير من التحريف بكل أسف ـ درامة ممتعة ، ليس فقط لما فيها من بدايات للتحليل النفسى الذى يبدو في الأدوار التي تجرى بين حواء والشيطان ، بل بوجه خاص من أجل دقة الملاحظات « المكتوبة باللاتينية » والتي تصف الإخراج : فهى وثيقة

ذات أهمية عظمى ليس لدينا لها مثيل حتى نهاية القرن الخامس عشر .

أ ـ جنروا

المسرح الديني في فرنسا في القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر »

قصائد ومقتطفات من فرنسا القديمة (ط باريس ، أ دى بوكار ، ١٩٢٤) (المقدمة ، ص ١٤ ـ ١٦) .

إذا كانت هذه الدرامة المكونة من حوالى ألف بيت تبدو مفككة الأوصال فى ظاهرها ، فإنها تنطوى على فكرة تجعل منها وحدة لاهوتية؛ فهى تبدأ بالخطيئة الأولى ، وتنتهى بالأمل فى الخلاص بعد أن تتعرض لموت هابيل الذى يعتبر الجريمة الأولى المنبعثة من الخطيئة الأولى ، كما يعتبر فى الوقت نفسه الصورة الأولى للتضحية التى ستتحقق فوق الصليب من أجل فداء الآثمين . ولكن إذا كان من شأن الجزأين الأخيرين من الدرامة (وبوجه خاص الجزء الثالث الذى يشبه إلى حد كبير إحدى الدرامات الكنسية القديمة من دورة عيد الميلاد) أن يبهرا أذهان متديني العصور الوسطى الذين كانوا يتمثلون معناهما الديني ، فإن الجزء الأول وحده هو الذى يسترعى الاهتمام فى أيامنا هذه بفضل قيمته الدرامية. هـ. شامار سر « آدم » .

نص مأخوذ من مخطوطة تور - ط أ. كولان باريس ، ١٩٢٥
، (المقدمة ص ٧ - ٨)

« إذا كانت ملاحظات الإخراج المسجلة على نص هذه المسرحية ، والأناشيد الطقوسية البحتة التى تنسب فيها إلى جماعة المرتلين ، مكتوبة باللاتينية ، فإن هذه المسرحية فى رشاقة أسلوبها ، و بذخ إخراجها تذكرنا بأن النصف الثانى من القرن الثانى عشر هو العصر الذهبى للأدب الفرنسى الوسيط ، حيث أخذت القصة البطولية تشب وتنمو . ولعل هذا هو السبب فى أن الشيطان لا يبدو فيها فى صورة ذلك الكائن القبيح الأشعر ذى القرون للكشر عن أنيابه، التى نجدها فى المسرحيات اللاحقة، بل بالأحرى فى صورة مضلل ظريف يستخدم مع أم البشر سحر الكلام وزخرفه .

وعنوان المسرحية « قداس تمثيل آدم » يشير بوضوح ، إلى أنها تعتبر بالرغم من غلبة الطابع الدنيوى عليها ، جزءا مكملا للعبادة ؛ ولكن لا يكاد المرء يبدأ بقراءة الملاحظة اللاتينية المسهبة حتى يرى نفسه أمام مسرحية حقيقية مستكملة الصفات . أليس من الممتع حقا أن نرى هذا الاهتمام من كاتب درامى يريد أن يضمن لعمله إخراجا متمشيا مع إدراكه الخاص للأمر ، وغنيا بالملابس ، ولا يدخر جهدا فى إغداق أدق التوصيات حول الحركات التعبيرية وتناسقها مع الكلمات، والإلقاء الذى يريده واضحا قويا،

واحترام الأوزان التي اختارها ؟ وما القول في هذه الإشارة الساذجة المعبرة، التي يقول فيها - حينما يعرض الكلام عن الفردوس -: يجب إمكان النظر إليها باليد! ألا يخيل إلينا هنا أننا نسمع أوامر هاملت للمثلين في قصر الدانيمركه والتي هي نفس الانتقادات التي كان يوجهها لممثليه الخرق !

ج . كوهين

المسرح في فرنسا في العصور الوسطى . « المسرح الديني »،
(ص ٢٤ - ٢٦ . ط . ريدر . باريس)

حول « معجزات السيدة العذراء »

« احتفظت لنا إحدى مخطوطات المكتبة الأهلية (وهي مخطوطة كانجيه القيمة) من أدب هذه الفترة بمجموعة تتكون من أربعين معجزة من معجزات السيدة العذراء. وهي ترجع إلى عدة مؤلفين ، وتتناثر تواريخها ، على ما يبدو ؛ على طول النصف الثاني من القرن .....

والموضوعات هنا ليست بالجديدة ، فإن الأدب القصصي السابق قد استغل فيها على أيدي أناس كانوا يعرفونه جيدا ، ومن ذلك معجزات جوتيه Cautier وكوانسي Coincy، وأناشيد المفاخر، وقصص المغامرات، وسير القديسين والتواريخ ، ذلك أن هؤلاء المؤلفين كانوا قد طرقوا الجميع الأبواب ، معتقدين في أغلب الظن — أنهم قد يجدون في كل حالة من الحالات حقيقة تاريخية . والواقع أننا نجد ذكر العذراء في بعض النصوص.

التى اتخذوها مصادر لهم ، فجعلوها هم تتدخل فى كل شىء . فهى التى تظهر فى مرحلة معينة ليس فقط لكى تقود وتنجى البرآء الذين يستطيعون ذلك بأنفسهم ، بل أيضا لكى تنجى الآثمين التائبين ، وبوجه خاص أولئك الذين ظلوا يؤمنون بأم المسيح حتى النهاية .

وليس فى وسعنا أن نشك فى أن « معجزات السيدة العذراء » عمل أدبى دينى ، وليس معنى ذلك أنها لم تهدف إلا إلى تربية المشاهدين . فإن العنصر الهزلى يبدو فيها واضحا . ويمكننا أن نلمح فنا الديكور أقل بدائية مما كان ينتظر. فلاشك أن ظهور العذراء فى موكبها المكون من طواويس الملائكة وهم ينشدون الأناشيد ، وكان يحدث أثره العاطفى على هذا الجمهور الساذج .وبوجه خاص لا بد أن تقلبات الحدث المذهلة فى بعض الأحيان كانت تجعل الجماهير يلهثون، كما أن قصة امرأة تتهم خطأ بحبها زوج إبنتها حبا آثما فتقتله، و يكتشف أمرها، ويحكم عليها بالموت حرقا، ثم تنتزعها السيدة العذراء من بين كومة النار ، وتقضى ما بقى من حياتها فى الدير ، لا بد أن لها نفس الجاذبية التى تتمتع بها قصة سوقية من القصص الحديثة .

ولكن مناظر الحياة البرجوازية والشعبية هى التى تفرضها علينا المعجزات بأكبر قدر من التوفيق ؛ ذلك أنها تمكننا من النفاذ الى مساكن الأسر الصغيرة ، والمتواضعة،وتطلعنا على طريقتهم فى التفكير والإحساس أكثر مما تطلعنا على تفاصيل حياتهم اليومية ، وهذا هو مبعث تلك المتعة الأصيلة

التى لانعثر عليها بنسبة مساوية فى أى عمل معاصر. فهذه المعجزات الساذجة التى خلفهالنا القرن الرابع عشر تعكس لنا بعض الشىء روح فرنسا القديمة.

ل . فوليه

التاريخ المصور للأدب الفرنسى

الصادر تحت إشراف الأستاذين ج . بيدييه و ب . آزار .

(مجلد ١ ص ٩٩ - ١٠٠)

إن معجزات السيدة العذراء لاتهمنا من حيث عقدتها التى تنحصر دائما فى التدخل الإعجازى للقديسة العذراء على طريقة المسرح الإسبانى ، ولكن بوجه خاص من حيث الحقيقة المذهلة التى تتسم بها مواضيعها المستقاة من سير القديس والفلكلور والأسطورة والملحمة . . .

. . . ويمكننا أن نحدس بما كان يمكن أن يصير إليه هذا النوع على أيدى مؤلفين من أمثـــال كالدرون Caldrou أو لوب دى فيجا Lope de Vega . غير أنه لم يتطور قط . ذلك أن هذا العرض المسمى « بالعبقرية » لم يصادفه ، فظل فى أيدى قوم من صنعاء النظم التافهين .

. . . وهكذا نرى أن التقوى ـ كما هى الحال فى « التفانى فى الصليب» لكالدرون ـ تمحو جميع الجرائم ، وأن التفانى فى السيدة العذراء آكد ترس ضد العقاب العادل ، وأن الرحمة الإلهية تقطع طريق العدالة البشرية الرتيب .

« جوستاف كوهين »

(المصدر السالف ، ص ٤١ ـ ٤٣)

«... ليست أشخاص «المعجزات» بالألاعيب ولا بالمعانى الميتافيزيقية المجردة . إنهم أشخاص يعيشون . وهذا التتابع للمناظر القصيرة المؤثرة من شأنه ـ كما هى الحال فى المسرحين الإسبانى والشيكسبيرى ـ أن يوهم المشاهدين بواقعية ما يعرض عليهم من أحداث وأشخاص ...

وقد أحسن الأستاذ « ج . بارى » حين لاحظ أن المعجزة تكون شكلا دراميا حافلا بشتى وعود الازدهار ، ولكنها لم تلبث أن تفقد حظوتها لدى الجمهور ، مما عاقها عن تحقيق هذه الوعود . (بوسوا)

تاريخ الأدب الفرنسى الصادر تحت إشراف

ج كلفيه « العصور الوسطى » (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦)

حول سر الآلام

لأرنو جريبان

إن الانطباع الذى تتركه فى الذهن هذه التمثيلية فى عمومها يتسم بالقوة والعظمة .. فلماذا ـ إذن ـ لا تجذبنا هذه « الأسرار » التى استولت على إعجاب الجماهير فى القرن الخامس عشر ؟ ذلك لأننا لا نراعى فى حكمنا عليها سوى قيمتها الأدبية . والحقيقة أن التنفيذ فيها لا يتناسب مع عظمة التصور حتى لدى كاتب مثل جريبان ؛ فقد نرى فيها بيتا كان يمكن أن يكون

رائعا ، ولـكنه حشى بضروب السطحية فى صورة ثمانية مقاطع . وكم نقابل فيها من مشهد جيد لولا ضروب الاعتراض الفثة المملة التى أقحمت فيه ، ولـكن الذى ينقصها بوجه خاص هو الروح الدرامى ؛ فليس فيها حركة بمعنى الـكامة . وهذا المسرح الذى يبدو كأنه يعج بالحياة والحركة مسرح جامد .وأغلب الظن أن احترام النصوص المقدسة هو الذى أدى إلى ذلك ، فلم يكن للشاعر حرية التصرف إلا فيما يختص برسم الشخصيات الهزلية .

ومع ذلك فإن الـكثير من مشاهد جريبان أوجان ميشيل توحى إلينا بما كان يمكن لشاعر موهوب أن يستخرجه من موضوع محدد هذا التحديد الصارم . ولـكن ليس هناك فى بناء « الأسرار » مكان للموهبة ، بالرغم ممـا ينطوى عليه من التعقيد والمقدرة العلمية . فهناك أرصدة مالية يقف الشاعر إزاءها بجانب النجار على قدم المساواة . وكلاهما يشتغل بكل جهده فى نفس العمل ، وهو التربية والتسلية ، ولم يفـكر أحد فى أن يطلب من الشاعر أن يفعل خيراً مما يفعل ، أو فى أن يزوده بالوسائل التى تمـكنه من ذلك . فمؤلفو الأسرار كانوا رجال قانون وموثق عقود ، وبوجه خاص رجال دين مضطرين للخضوع لمـا توجبه عليهم مهنتهم ، ثم كيف يجدون لديهم الوقت لـكى يتأملوا ـ على مهل ـ هذه القصائد الطويلة التى تصل إلى ٣٠٠٠٠ بيت لدى جريبان ؟ وإلى أكثر من ٦٠٠٠٠ فى « أعمال الرسل » ....

.... إذا أردنا أن ندرك الأصالة الحقيقية للأسرار . فإنه يجب علينا ألا نقتصر على قراءتها ، وإنما ينبغى أن نعيد وضعها فى إطارها ، وأن نشاهد بخيالنا هذا التمثيل الفخم ؛ وأن ننظر إلى الجمهور أكثر مما ننظر إلى المؤلف .

فلم يكن ثراء الشكل أو جماله هو الذى يبهر تلك الجموع ، بل الموضوع نفسه بل الدين وقد وضع فى متناولهم ، حيث كانوا يرون الإله وهو يشرح بنفسه للمؤمنين و يبين لهم . وعلى النحو كان مسيحو القرن الخامس عشر يتلقون ــ وهم فى حالة تجل وانجذاب ــ أفخم دروس دينية كان يمكن أن يتلقوها .

« ل . فوليه »

(المرجع السابق ، ص ١٠٣ ــ ١٠٤)

« إن الأثر الشعرى العظيم الذى خلفه لنا القرن الخامس عشر ، والذى لا يقل فى عظمته عن إحدى الكاتدرائيات قد نشأ فى كاتدرائية ، فى نتردام باريس . وهذا الأثر الذى يشبه الأروقة المزينة بالتماثيل والصور فى تلك الكنيسة الجليلة التى يكاد جمالها القوى يسحق الرأى حتى بالنسبة للأقدمين الذين كانوا يتأملونها ، هذا الأثر عبارة عن درامة ، عن « سر » كما كانوا يسمونه فى ذلك الحين .

هذه الدرامة بأشخاصها العديدين تذكرنا بالتماثيل والصور الكبيرة

والصغيرة التي تزين الكاتدرائية ، وتبعث فيها الحياة ، كما أن مقطوعاتها ذات الطابع الغنائي ، وموسيقاها ، وملابس ممثليها ونكراتها ، تزينها كما تزين الكنيسة صورها وزجاجها الملون ، وهذه الدرامة المسيحية كالكنيسة ، عمل منطقي شيد بصورة منطقية ، و بني بمواد نظيفة .

« والآلام » كتاب كامل طويل ، بل شديد الطول ، كما أنه رقيق ولطيف أيضاً ، كتاب عالم وموسيقى ، كتاب تنعكس فيه صورة كاتدرائية نتردام الباريسية ينسبها وموسيقى جماعتها الترتيلية ، باحتفالاتها الجليلة ؛ و بالاختصار بكل بنيان طقوس حياتها الدينية .

ولابد لنا من الاعتراف بأن جزءا كبيرا من المتعة والجمال اللذين يحس بهما في « سر الآلام » كان يرجع إلى إخراجه ، إلى مواكبه ، إلى الموسيقى التي كانت تصحبه ، وتجعل منه بوعا من الدرامة الموسيقية ، أو من الأوبرا .

(حول الإخراج) :

... كان هذا الإخراج آنيا ، كما هو معروف ، أى أن كل أماكن الأحداث التي تغلق بوساطة أستار كانت تقام كلها منذ البداية على تخوت قد يصل طولها إلى ثلاثين متراً . وكانت تنضد على مستوى واحد أو على مستويات متدرجة . وهكذا كان المرء يرى تحت بصره دائماً نفس الديكور

الذي يمثل — على سبيل المثال — الجحيم ، وهي فوهة ضخمة تفتح وتغلق وتقذف باللهب والدخان، كما يمثل طستا مليئا بالماء يشير إلى البحر ،أو إلى بحيرة طبرية ، وأبوابا ضخمة تمثل بيت المقدس والقصر والمعبد والناصرة ، ويمثل الفردوس ، وهي عبارة عن كوخ تعلوه شمس ساطعة .

وكان كل أشخاص المسرحية ـ حتى أولئك الذين لا يشتركون في الدور الجاري ـ يظلون على المسرح ، فيكونون بذلك لوحات حية تحت أبصار المشاهدين . وبالاختصار كان يمكن أن يظل هناك أربعمائة شخص داخل أماكنهم أوأمامها ، فتصبح هذه الأماكن وكأنها مقصورات لهم ، أما هم فيشبهون تلك المئات من التماثيل التي تحلى كوى الأروقة في الكنائس القوطية . ويمكننا القول بأنه كان يرى هناك عالم بأسره ، غارق في إيمانه يدعو وينشد في صوت واحد ، ويتأمل الممثلين أمامه وكأنهم عالم آخر .

« ب — شامبيون »

(التاريخ الشعرى للقرن الخامس عشر مجلد ٢ ، ط ١٩٢٣ ، ص ١٢٣ ـ ١٤٨)

« هناك سبب رئيسي يعوق « السر » عن احتلال مكانه في صف الدرامات العظيمة التي تفرض نفسها بصورة دائمة على إعجاب العالم الغربي، وذلك أنها لم تعرف كيف تحد من طموحها ، إنها أرادت أن تضم تاريخ السلالة البشرية والكون كله بين ذراعيها في ضمة واحدة ، أرادت أن

تقدم للكائن البشرى مسرحاً إلهيا . ولكن لما كان الإله هو الكون مدركا ذاته ، كان من المستحيل حصر هذا الكون الكبير فى كون المسرح ، ذلك الكون الصغير ، حتى ولو جعل الرب من نفسه إنساناً . ومن هنا كان ظهور المسيح (فى سر الآلام) يحرك عواطفنا ، ويجذبنا بمقدار اقتراب دوره فى الحياة من دور الإنسان . ولكن أمه تجذبنا أكثر من ذلك حين تخلع عليها واقعية كاتب مثل جريبان عواطف طبيعية ؛ ويمتعنا أكثر من هذا وذاك دور يهوذا حيث نرى التعاسة والجبن والدناءه والندم المر ترتبط بضعف الإنسان وميوله الشريره . وهذه أيضا هى الحال بالنسبة لمسرح أوبرا مارجو الألمانى . ولا شك أن القول بأن مسرح العصور الوسطى لم يتيسر له التقاء الموضوع بالعبقرية ، ذلك الشرط الضرورى لظهور الروائع قول غير كاف ، ولعل من الأصوب أن يقال بأنه قد حاول عملا مستحيلا ، حاول الإقدام على مشروع ميئوس من تحقيقه ، وهو أن يمثل عمل الخالق فوق تخوت الميدان العام ، وفى قلب المدينة وتحت سماء الاله ، ولكن هذه المحاولة قد تركت ، بالرغم من هذا ، أطلالا رائعة جديرة بتلك الفترة التى استطاعت تصوير الكوميديا الآلهية وتحقيقها على يد دانتى الإيطالى .

« ج . كوهين »

(المرجع سالف الذكر ، ص ٧٤ — ٧٥)

مطبعة المعرفة
عمارة التأمين ميدان لاظوغلى
ت ٣٣٩٩٠
١٠٠٤٧٧

25

ح
١٠